سعيد

علم النفس الاجتماعي

مجلد كتب
صالح الدقر

301.1:Sa13iA C.2

سعيد، محمد مظهر .

علم النفس الاجتماعي .

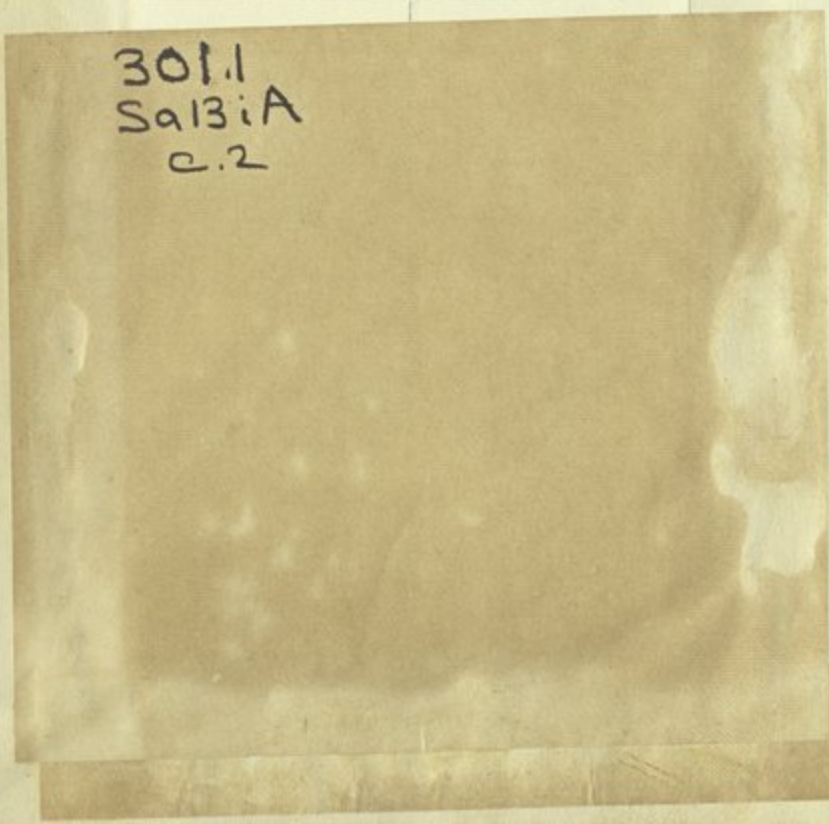

301.1
Sa 13 i A
c.2

٩ - سلسلة مؤلفات علم النفس والتربيـة والاجتماع

علم النفس الاجتماعي

من الاسلام والعالم الحديث

محمد مظهر سعيد

مفتش العلوم الفلسفية بوزارة المعارف
وأستاذ علم النفس الاجتماعي بكلية أصول الدين
بالجامعة الأزهرية

وسابقاً أستاذ علم النفس بمعهد التربية العالى بالقاهرة
والخبير الفنى لوزارة المعارف العراقية
وعميد المعلمين العالية ببغداد

68105

الطبعة الثانية — سنة ١٩٤٥

ملتزم النشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة

تليفون : ٥٠٨٢٧

Gift - Dr. Kurani - Oct. 1948

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام المربين ، ومعلم المعلمين .

(وبعد) : فهذه عشرون عاماً قضيتها فى علم النفس ، متعلماً ومعلماً ، دارساً ومدرساً ، باحثاً ومنقباً ، كاتباً ومؤلفاً ، كنت فيها مندمجاً فى زمرة علماء الغرب ، الذين وضعوا أسس علم النفس الحديث ، متأثراً خطاهم ، مصطنعاً أساليبهم ، ناهجاً منهجهم ، وما علىّ وقد تلقيت عنهم هذا العلم .

وكنت أرجع إليهم وأكتب بلغتهم ، وأنشر نظرياتى الجديدة فى مجامعهم فيتناولونها فى مجلاتهم ومؤلفاتهم ، ويناقشونها فى مؤتمراتهم . وعلى هذا النحو نشأت ، وحاولت أن أنشىء طلابى فى معاهد التربية والمعلمين .

ثم شاء حسن الطالع أن تظهر كليات الجامعة الأزهرية ، وأن أقوم بتدريس هذا العلم فى كلية أصول الدين من يوم أن فتحت أبوابها لطلاب علوم الدين ، وأن يكون لى نصيب فى وضع مناهجها ، وتعديل برامجها وكتابة مذكراتها ، فكان طبيعياً أن أتصل بالثقافة الإسلامية وأن أحاول ما استطعت أن أقرب بينها وبين هذا العلم الحديث ، فكان هذا توجيهاً جديداً لى أعده من باب التوفيق .

فقد انتهيت منه إلى أمرين : كلاهما جد خطير . أولهما : إن فى القرآن الكريم والحديث الشريف وتاريخ الإسلام وآثار السلف معيناً لا ينضب للدراسات النفسية ، وموروداً لا ينفد للحقائق النظرية والطرائق العملية .

وثانيهما : أن علم النفس هو أساس دراسة الدين ، وقديماً قال ابن مسكويه في تحصيل الخلق الجميل « بمعرفة ماهية النفس وسبب وجودها وغايتها وقواها ، وما الذى يبلغها كمالها أو يعوقها عنه » . وهذا ماكدوجل زعيم المحدثين الغربيين فى علم النفس الاجتماعى يقول : « فى هذا العصر الذى تشتبك فيه مصالح البشرية وتلتقى ، لانجد فى مختلف الدراسات والعلوم والفنون شيئاً أكبر خطراً ، وأجدر بالدرس من علوم النفس والدين ، فهما أكثر العلوم شبهاً وأقواها اتصالا ، وفيهما مفتاح المسائل التى شغلت عقل الإنسان منذ أن وجد . من أنا ؟ وماذا يجب أن أعمل ؟ وفيم أؤمل ؟ فإذا فهم الإنسان دينه فى ضوء علم النفس أمكنه أن ينقذ نفسه من الضلال . وأن يعيد بناء الإنسانية التى أوشكت أن تنهار على أساس قويم متين » .

فاستخرت الله أن أفتح هذا الباب — باب الإسلام ودراساته وثقافته لطلاب علم النفس الحديث ، بكتاب هو فى صغر حجمه وقلة موضوعاته ماكورة نرجو أن تنمو وتنضج حتى تؤتى أكلها بعد حين . وفقنا الله إلى السير فى هذا الطريق ، لنستعين بمعرفة نفوسنا على تفهم ديننا ، إنه سميع مجيب .

أول مايو سنة ١٩٤٥ — محمد مظهر سعيد

مقدمة الطبعة الثانية

تقبل الطلات والمدرسون والباحثون هذا الكتاب الصغير، يوم أن ظهر، بشيء كثير من الرضا والتقدير، ونفدت الطبعة الأولى بعد ظهورها بقليل، وكان فى خاطرى أن أزيد فيه مادة وشرحاً وأمثلة، وأضمنه بعض الرسوم التوضيحية والجداول، ولكن ظروف الطباعة، وقفت حائلا دون تحقيق هذا الخاطر.

واشتد الطلب وتجدد، فلم أجد بداً من إعادة طبعه كما هو دون زيادة أو تعديل. وقد تفضل صديقى الأستاذ أحمد محمد إبراهيم صاحب مكتبة ومطبعة نهضة مصر، وتولى أمر هذه الطبعة الثانية، فله خالص الشكر ووافر التقدير.

ولعل الأصدقاء والقراء، فى مصر والبلاد الشقيقة العربية، الذين ألحفوا فى الطلب، يقبلون العذر، ويقنعون بالقليل المفيد. وفقنا الله جميعاً لخدمة اللغة والعلم والدين.

مارس سنة ١٩٤٥

محمد مظهر سعيد

الباب الأول

المقدمة

علم النفس : لكل علم من العلوم ناحية خاصة يتجه اليها وموضوعاً يبحثه وأسلوباً يتبعه فى هذا البحث ، فمن العلوم مايبحث فى الكون والعالم المادى كالفلك والجغرافيا والكيمياء . ومنها ما يتناول الإنسان ، من ناحية بدنه كالتشريح ووظائف الأعضاء ومن ناحية تفكيره كالمنطق .

أما علم النفس الانسانى فيبحث العقل — فى جميع مراتبه ودرجاته — عقل الطفل والبالغ ، والرجل والمرأة ، والعاقل والمجنون ، والمتوحش والمتمدين ، ويبحث فى وظائف العقل وعملياته التى يقوم بها ، من إحساس بالمؤثرات وإدراك للمواقف وتذكر للماضى وتفكير فى المشاكل وفى الحالات التى تكون عليها النفس ، من غضب وخوف ، وفرح وحزن ، وقلق واطمئنان ، ويبحث كذلك فى كافة أنواع السلوك والتصرفات التى يقوم بها الانسان ويكون مصدرها العقل ، فهو يدرس الحياة العقلية جملة ، أى مظاهر حياة الانسان التى تصدر عن العقل .

ولما كان العقل شيئاً مجرداً معنوياً لا مادياً ، لا نستطيع أن نصل إليه مباشرة ، فنلاحظه ونقيسه ونصفه كما نفعل فى الأمور المادية المحسوسة ، كطول الانسان ووزنه وقوة بصره ، فإن طريقنا الوحيد لدراسة العقل ، هو أنواع السلوك والتصرفات التى تصدر عنه ، فعلم النفس الانسانى إذن هو العلم الذى يبحث فى أنواع سلوك الانسان وتصرفاته ، باعتبارها مظهراً

أو أثراً للعقل ، وبعبارة أخرى هو العلم الذى يبحث فى الحيـــاة العقلية للإنسان كما تبدو فى أنواع سلوكه وتصرفاته (١)

الإنسان والحيوان : والإنسان فى الواقع يشترك مع سائر الكائنات الحية فى جميع صفات الحيـــاة العامة ومميزاتها . فهو مثلها يحيى وينمو ، ويتغذى ويتناسل ، وتطرأ عليه عوامل الصحة والمرض ، ثم يهرم ويضعف ويموت . ويشعر كما تشعر ، بجميع ما يحيط به فى حالة اليقظة ، ويغيب عن شعوره فى حالات النوم والاغمـــاء والخدر . وليس هو أرهفها حساً ولا أكثرها نشاطاً ولا أقواها بدناً . فهو فى إحساسه بالمؤثرات قد لا يصل إلى دقة آلات القياس كالترمومتر (مقياس الحرارة) والبارومتر (مقياس الضغط الجوى) ، ولا يصـــل فى سرعة تصرفاته ودرجة اتقانها إلى ما وصلت إليه الآلات المتحركة كالسيارة والقطار والطائرة ولكن يمتاز عنها جميعاً بأمور عدة ، مصدرها ما أوتى من عقل ممتاز وقدرة على الإدراك والتعليل ، وسرعة التعلم واكتساب المهارة ، واستعداد لتذكر المـــاضى والانتفاع بالخبرة السابقة ، والخروج بعقله من دائرة الملموس إلى المعقول غير المادى ، ومن حيز الواقع الضيق إلى عالم الخيال الواسع .

الشعور ومظاهره : ثم هو فوق شعوره بما حوله من الأشياء والمواقف يمتـاز بشعوره بنفسه وذاته ، فيـــدرك أنه متكلم أو صامت ، وأنه يأكل ويشرب ويفكر ، ويشعر بما يصدر عن ذاته من حركات مادية كالحركة والكلام ، وأمور عقلية كالتذكر والتفكير ، وبما تكون عليه ذاته أو نفسه من حالات نفسية كالفرح والحزن . فتجده فى لحظة ما متذكراً أو متصوراً أو مدركاً أو مفكراً ، أو قائماً بعملية من العمليات الكثيرة التى يدرك بها المواقف ويكتسب المعرفة ، وتراه فى لحظة أخرى متأثراً أو منفعلا

أو شاعراً بخوف أو غضب ، وفى لحظة ثالثة قائماً بعمل أو منفذاً لفعل اعتزمه من قبل ، أو رأى فى التو أنه يريد أن يقوم به ، وبالجملة تجده فى كل لحظة من لحظات حياته الشعورية مدركاً أو منفعلا أو نازعاً متصرفا . وكذلك نجد هذه المظاهر الثلاثة لحياة الانسان الشعورية ، وهى الادراك والوجدان والنزوع مجتمعة فى كل عملية عقلية ، كيفما كان نوعها . فالانسان لا يحس ولا ينفعل ولا يقوم بعمل إلا اذا كان هناك أمر خارج عنه ، سواء أكان شخصاً أم شيئاً أم موقفاً أم فكرة تطرأ عليه — يستقبله العقل ويتعرف عليه ويدركه ، فيتأثر به ويشعر نحوه بالارتياح والسرور واللذة لوجوده ، أو عدم الارتيـــاح والألم والنفور منه ، فينزع أو على الأقل يشعر بالنزعة إلى إبقائه على ما هو عليه لزيادة دراسته وإدراكه من نواح أخرى ، والتمتع به أو بالعكس إبعاده أو القضاء عليه والتخلص منه لزوال عدم ارتياحنا إليه . فالإدراك والوجدان والنزوع ليست إذن قوى منفصلة تعمل كل منها فى دائرتها مستقلة عن غيرها وإنما هى مظاهر للعملية العقلية الواحدة التى يقوم بها العقل فى لحظة ما ، أو هى كما يقول (ستاوت) المظاهر التى يتجلى بها الشعور أو الطرق التى بمقتضـــاها يرتبط العقل بموضوع أو يتـأثر بمؤثر أو موقف خاص . وليست هى أيضاً بخطوات متتابعة تؤدى كل منها الى التى تليها وتختفى بمجرد ظهورها ، كأن يحدث الادراك أولا ، ويختفى بظهور الوجدان ، وهذا بدوره يخلى الطريق للنزوع ، وإنما هى تحدث معاً . فهى كأضلاع المثلث ، يتعين وجودها معاً لتكوين وحدة المثلث ، وإن اختلفت أبعادها ونسبها ومقاديرها . أو هى كما يقول (ستاوت) مركبات جزئية لوحدة مميزة قائمة بذاتها . متداخلة تداخلا كلياً ومرتبطة ارتباطاً تاما ، بحيث لا يحدث انفعال من غير أن

يسبقه ويصحبه ادراك ، ولا يحدث نزوع من غير إدراك ووجدان (٢) .

الاستعدادات الإنسانية :

يرى علماء النفس المحدثون وعلى رأسهم ماكدوجل ، مارآه أفلاطون فيلسوف اليونان الأكبر من قبل ، أن كل تصرفات الإنسان وأعماله الجسمية والعقلية ترمى إلى الوصول لغرض خاص يصلح له ويمكنه من البقاء فى معترك الحياة سواء أشعر بالغرض فى أثناء التصرف ، أم لم يشعر ، وأن الله لم يمنح الإنسان سائر قواه العقلية عبثاً ، وإنما لحكمة سامية قد لا تدركها بصيرته . ومن ثم تكون حياته كلها غائية أو « هورمية » (٣).

ولما كانت ظروف الحياة الإنسانية معقدة غاية التعقيد ، وحاجات الناس متعددة ورغباتهم متنوعة ، فإنه يقتضى أن تكون لدى الإنسان طائفة كبيرة من الاستعدادات والقوى التى تمكنه من مجابهة الظروف والتصرف فى كل موقف بما يناسبه من بساطة أو تعقيد ، وإن تفوق هذه الاستعدادات والقوى فى تحفزها ويقظتها وسرعة عملها ودقتها ونظامها مالدى كل الكائنات الحية الأخرى من قوى ودوافع ، ولو نظرنا لتصرفات الإنسان وأعماله ودوافعه الثابتة المستقرة ، والمختلفة المتغيرة ، لوجدناها تصدر عن طائفتين كبيرتين من الاستعدادات . أولاهما : الاستعدادات الفطرية التى ركبت فى خلقته وطبيعته ، وورثها عن آبائه وأسلافه ، كالبحث عن الطعام ، والهرب من الخطر ، والدفاع عن النفس والتناسل ، وهذه تمتاز بأنها عامة عند جميع أفراد النوع الإنسانى ، ثابتة أصيلة فى النفس ، لا يتغير جوهرها بتغير الظروف والأحوال وإن تغيرت مظاهرها ، ضرورية لاستمرار الحياة ، فلا يمكن الاستغناء عنها بحال ، أو منعها والوقوف فى طريقها .

وطائفة أخرى يكتسبها الإنسان من بيئته التى يعيش فيها بالتعليم أو التلقين ، أو الإرشاد والتقليد ، كالتكلم بلغة ما أو الكتابة والرسم وقيادة السيارة . وهذه تختلف بالضرورة من شخص لآخر ، وقد تختلف عند الشخص الواحد باختلاف ظروفه ، فما يكون ضرورياً منها فى وقت ما لا يكون مطلوباً فى وقت آخر ، وهى لذلك تقوى بالمران وتضعف بالترك والإهمال . والإستعدادات الموروثة ليست نوعاً واحداً ، وإنما هى أنواع تختلف فى قوتها وترتيبها وأثرها فى توجيه سلوك الإنسان ، فمن أبسطها الأفعال المنعكسة (٤) وهى الأفعال البسيطة غير الشعورية اللاإرادية التى يقوم بها عضو واحد من أعضاء البدن أو جزء بسيط من عضو واحد ، كإغماض العين عند اقتراب جسم متحرك منها ، واتساع حدقات العين وضيقها لاختلاف مصدر الضوء قوة وضعفاً ، وهذه قد تتم فى لحظة من غير أن يتنبه لها الكائن الحى أو يشعر بها إلا عند تمامها ، ولا يستطيع أن يمنعها أو يعدل من أسلوبه أو يتحكم فيها بإرادته . ومن أقواها وأهمها الاستعدادات الغريزية التى تتطلب من الكائن الحى استخدام بدنه كله وعقله للوصول إلى غرض هام ضرورى يدفعه إليه الموقف الذى يجابهه ، كالهرب من الخطر ، والدفاع عن النفس ، والسيطرة على الضعيف والخضوع للقوى .

الباب الثانى

الغـــرائز

يولد الإنسان مزوداً بطائفة من الاستعدادات الفطرية الغريزية ، التى تمكنه من التصرف فى المواقف التى تطرأ عليه فى حياته ، بما يحقق مصلحته ويجعله صالحاً للبقاء دون سابق خبرة أو تعليم ، وهو فى أول نشأته يشابه الحيوان فى تصرفاته لأن الحيوان يشاركه هذه الغرائز ، ولكنه مع هذا يستفيد من عقله وتجاربه والظروف التى تمر عليه ، فيستطيع أن يعدل من سلوكه الغريزى ويسمو به ويخرج من دائرة الحيوانية إلى دائرة الإنسانية ذات المثل العالية والمبادىء السامية ، فى حين يبقى الحيوان على فطرته لأن غرائزه ثابتة وتصرفاته نمطيـة . أما غرائز الإنسان فمرنة وقابـلة للتعديل .

وفى هذا يقول قطب الدين الشيرازى : « للنفوس البدنية شيئان : فاعلى ونمائى . أما السبب الفاعلى فهو أن أول نشأة للنفس هى هذه النشأة الطبيعية والبدنية ، ولها الغلبة على النفوس مادامت متصلة بالبدن منصرفة عنه ، فتجرى عليها أحكام الطبيعة البدنية . وكذا إرادة الله تعلقت بإيداع الألم والإحساس به فى غرائز الحيوانات ، والخوف فى طباعها مما يلحق بذاتها من الآفات العارضة والعاهات الواردة عليها حثاً لنفوسها على حفظ أبدانها ، وكلاءة أجسامها ، وصيانة هياكلها من الآفات العارضة لها ، إذ الأجساد لاشعور لها فى ذاتها ولا قدرة لها على جر منفعة أو دفع مضرة ، فلو لم يكن الألم والخوف فى نفوسها لتهاونت النفوس بالأجساد وأسلمتها إلى المهالك » (٥) .

ويقول ابن سينا : « الإدراك يحدث بعضه دون شعور ، وذلك بتأثير الحياة الحسية النزوعية كما هو الحال فى الحيوان ، وبعضه يحدث من شعور بفعل العقل . وفى الحالة الأولى يظل الإدراك متصلا بالجزئى ، فالشاة تدرك عداوة الذئب (بفعل الغريزة) » (٦) .

ويقول ابن ماجه : « الحيوان غير الناطق إنما يتقدم فعله مايحدث فى النفس البهيمية من أفعال ، والإنسان قد يفعل ذلك — كما يهرب من مفزع ومثل مايكسر عوداً خدشه ، لأنه خدشه فقط . وهذه وأمثالها أفعال بهيمية (غريزية) فأما من يكسره لئلا يخدش غيره ، أو عن روية توجب كسره فذلك فعل إنسانى . فالفعل البهيمى هو الذى يتقدمه فى النفس الانفعال النفسانى فقط ، مثل الغضب أو الخوف وما شاكله — أما من يفعل الفعل لأجل الرأى والصواب ، ولا يلتفت إلى مايحدث فى النفس البهيمية ففعله بأن يكون إلهياً أولى من أن يكون إنسانياً » (٧)

ويذكر الأستاذ الإمام الشيخ المراغى أنواعاً متعددة من هذه الاستعدادات الفطرية الغريزية فيقول : « منح الله سبحانه وتعالى الإنسان أنواعاً من الهداية توصله إلى أغراضه وتمنعه من التوسط فى المهالك .

أولاها : هداية الإلهام والفطرة ، وهى فى الأطفال منذ ولادتهم ، والطفل عند مايولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالباً له وإذا أعطى الثدى لفمه . وتليها هداية الحواس والمشاعر . وثالثها هداية العقل » (٨).

ويقول : « أودعت فى الإنسان غرائز الشهوة ، وغرائز الغضب ، والانتقام ، وهو ميال إلى الإثرة بطبعه ولولا الحدود توضع له لأسرف فى استعمال هذه الغرائز وأسرف فى الجور ، كذلك هو نزاع إلى المعرفة ، يحاول الكشف عن كل شىء فيما غُيب ، وفيما لاسبيل إلى معرفته من سر

القدر وطريق الخلق وأطواره » (٩).

وفى موضع آخر : « والأولاد عزيزة على النفس يرى الإنسان فيها مورثه ، ويحتفظ بها كما يحتفظ بنفسه أو أشد ، ويدرك أن بقاءها بقاؤه ، وقد جبل الإنسان بل الحيوان على الحرص عليها والضن بها والدفاع عنها وقد يضيع الإنسان حياته دفاعاً عن حياة ولده » (١٠) .

أمثلة الغرائز : فالإنسان بفطرته يدرك المواقف التى تتعرض فيها ذاته أو ملكه أو أولاده وأقاربه للخطر ، من الحيوان المفترس ، والعدو المفاجىء ، والماء والنار والظلام ، والشىء المجهول ، فيخاف ويجرى أو يختفى ، أو يصطنع أية وسيلة من الهرب لينجو من هذا الخطر ويبتعد عنه ، وقد أمر الإنسان بذلك فقال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

ثم هو يغضب ممن يعتدى عليه ويقف فى طريق رغباته أو يعطل له مصلحة ، أو يهاجمه فى دينه وملته وعقيدته ، أو يجرح عزته وكرامته ، ويقاتله ليبعده أو يمحو أثره ، حتى لايكون فى استمرار بقائه خطراً عليه ، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال فقال فى كتابه الكريم : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » وقال تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » ، وقال تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

وقال تعالى « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة

ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما ، وفى الأحاديث الشريفة : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » ، « ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » ، « ضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيله وإيمان به وتصديق لرسله ، أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو نتيجة » .

ويقول الإمام المراغى : « أن الإسلام يريد رجلا عاملا فى الحياة ، مهذب الأخلاق ، طاهر الأعراق ، قوياً لا يهاب الموت ، يدفع عن الدين ويذافع عن الوطن ويذود عن العشيرة » ١١

وفى موضع آخر : الجهاد فى سبيل الله معناه الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، وإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين إعلاء للحق ، فكأن المسلم ندب من الله لنصر الحق وإعزازه والضرب على أيدى البغاة لتطهير الأرض من الفساد منزلة وضع بها فى الدرجة العليا للكرامة ، فعليه أن يعد نفسه لها ، وقد جعل الله أجر الجهاد عظيما ، وجعل عقوبة التخلف عنه سخطه وغضبه (١٢).

ومن طبيعة الإنسان أن يخضع لمن هو أقوى منه بدناً أو عقلا ، أو أقدر فناً ، أو أغزر علماً ، أو أصلح خلقاً وديناً ، ولذلك يخضع لأوامر أبيه وولى أمره ، وأستاذه ومربيه ، ثم لرؤسائه وحكامه وأئمة دينه ، وقادة الرأى وزعماء أمته . وقد طلب الله تعالى طاعته وطاعة رسوله ، وسن أن حياة العباد ونظام المجتمع فى هذه الطاعة فقال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، وقال تعالى فى طاعة الوالدين : « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما » ، وقيل فى طاعة العلم : « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » .

« ثم هو ميال بطبعه إلى السيطرة على من أضعف منه والتسلط عليه بالقول والعمل الى حد الاستعباد والإملاء وفرض الرأى ، وفى هذا يقول الإمام المراغى : « الذى يجعل لنفسه حق التقدم على أحد يجعل لنفسه حق إبداء الرأى والسبق به حق المخالفة » (١٣)

والإنسان مولع باستطلاع الشىء الغامض واكتشاف المجهول وتعرف الغريب ، ولولا هذه النزعة ما استطاع أن يكسب الخبرة والمعرفة ويضع النظريات والقوانين ، ويتقدم فى العلم ، ولما وصلت الإنسانية الى ماوصلت إليه الآن من مدنية وثقافة ، والقرآن الكريم يحث الناس على التدبر فى آيات الله والتأمل فى خلقه ، ودراسة الكون وظواهره ، والأمم وتاريخها وأحوالها .

والاستطلاع عند ابن سينا وابن خلدون هو أساس رقى الإنسان وتعليمه ، وابن ماجه يطالب الإنسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه . وقديماً قال سقراط شيخ الحكماء : « اعرف نفسك بنفسك » والرازى يقول : « من عرف نفسه قد عرف ربه » وقد جعل ابن طفيل حى بن يقظان يصل بحسه ومشاهداته وتأمله واستطلاعه الى حقائق الكون وفلسفته دون أن يتعلم ذلك من أحد .

والإنسان مدنى بطبعه ، دؤب على الاتصال بأبناء جنسه ، يجد الأنس فى اختلاطه بهم والوحشة فى الابتعاد عنهم ، ويبتغى أمور معاشه ومعاده فى التعاون معهم ويكتسب خبرته وثقته من الاحتكاك بهم . والله تعالى يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

ويقول الإمام المراغى : « الإنسان كائن يختلف عن غيره أشد

الاختلاف ، فهو كثير الحاجات متنوع الرغبات ، بعيد الأمل كثير الطموح محتاج لغيره فيما يقوم البدن ويستره ويرفه عيشه . وفيما يصلح نفسه من العلم والتهذيب ، لا تقف رغباته عند حد ، ولا يستقر على حال ، ويحتاج إلى غيره فى حماية نفسه من العاديات ، فلا يمكن أن يعتبر الفرد وحدة منفصلة عن الجماعة ، بل يجب أن يعتبر جزءاً من وحدة ومتمما لها ، فلا بد أن يتبادل مع أجزاء الوحدة ما يحفظ هذه الوحدة سليمة ، ويعود عليها بالخير والبركة ، بهذا كان مطالباً بأن يقدم للوحدة نفسه وماله وكل ما وهبه الله إياه من علم وعقل وتهذيب » (١٤)

وهذه النزعة كما يقول مكدوجل: « هى الأساس الذى يقوم عليه الجماعة البشرية فى جدها ولهوها وعملها ووقت فراغها وسائر نواحى إنتاجها » ١٥

وقد أشار العالم وليم جيمس وغيره من علماء النفس إلى أثر الوحدة السيء فى النفس والجهاز العصبى ، ومبلغ شدة الحبس الانفرادى كوسيلة من وسائل التأديب ، لا عند الإنسان فحسب وإنما كذلك عند الحيوان ، وقد لاحظ جالتون أن بعض الحيوانات ، كالثيران يموت الواحد منها وتختل أعصابه إذا فصل عن القطيع (١٦)

وحب الصغار من الأطفال والحيوان والنبات طبيعى فى نفس الآباء مما تضرب به الأمثال ، فقد ورد فى أمثال الميدانى « أن رجلا تزوج امرأة وله أم عجوز ، فقالت المرأة للزوج — لا أنا ولا أنت حتى تخرج هذه العجوز منا ، فلما أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلا حتى أتى وادياً كثير السباع فرمى بها ، ثم تنكر لها فر بها وهى تبكى فقال — ما يبكيك يا عجوز — قالت — طرحنى إبنى هاهنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد — فقال لها — تبكين له وقد فعل بك ما فعل ، هلا تدعى عليه — قالت وأرسلته

مثلا — تأبى له ذلك بنات البين — أى عروق قلبى ».

والانسان ينفر بطبعه من المناظر والطعوم والروائح الكريهة المنفرة ويتقزز لرؤيتها ويشمئز منها ، فيندفع للابتعاد عنها ونبذها .

والشهوة التى تصاحب الغريزة الجنسية من أقوى الأمور التى تتملك قياد الانسان ، وقد قال الله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

هذه وغيرها من أنواع السلوك الغريزى هى الأساس الذى تقوم عليه حياة الانسان الفطرية ، فلاعجب إن اعتبر العلماء الغرائز أهم مصادر السلوك الإنسانى جملة فتجد ستنلى هول يقول إن جميع أعمال الإنسان وأخلاقه تسير نحو غرض معين ، وجميع مصادر النزعات والرغبات وتصرف الإنسان على وجه العموم نجدها متأصلة فى الغرائز ، وهى مرشد الإنسان الذى لا يخطىء لأنها حفظت الفرد والنوع والطبيعة ورثتها الانسان لأنها وجدت بالتجربة وبالانتخاب الطبيعى إنها خير ماتورثه إياه (١٧).

ويقول ماكدوجل « إن الغرائز هى المصدر الوحيد المهم لكافة أنواع التصرفات الانسانية وبغيرها لايمكن بقاء النوع ، فضلا عن رقيه وتمدينه ، انزع هذه الغرائز من الانسان يصبح كالساعة التى ينزع منها زنبركها ، أو كالآلة التى بفصل عنها محركها » (١٨).

وفى موضع آخر « هى الأساس الذى تبنى عليه أخلاق الأفراد والأمم ومميزاتهم وإرادتهم تحت إشراف العقل (١٩).

ويقول ستارش : « هى القوى المحركة الديناميكية التى تقرر أعمالنا وتحدد رغباتنا وهى كذلك ناحية التربية تهيء الدوافع للعمل والحفظ ووسائله » .

تعريف الغريزة : هناك أنواع أخرى من الاستعدادات الفطرية كالغريزة ، ولكن الغريزة تمتاز عنها كلها بأنها ميل أو ستعداد فطرى عام

عند جميع الكائنات الحية وبخاصة الإنسان — بدنى فيزيق لأنها تستخدم كل أعضاء البدن وأجهزته — عقلى أو سيكولوجى أو نفسانى لأنها تتطلب استخدام العقل والشعور — يجعل الكائن مهيئاً بطبعه لإدراك مواقف ومثيرات معينة ، فيدركها ، فيشعر بانفعال نفسانى خاص أو تتملكه حالة وجدانية معينة ، فيندفع فوراً لنوع من التصرف ويسلك مسلكا خاصاً أى ينزع لقيام بعمل خاص ، أو على الأقل يشعر فى نفسه بوجود الدافع وإن لم يتم النزوع والتصرف بالفعل (٢١) . ففيها مظاهر الشعور الثلاثة من إدراك ووجدان ونزوع ؛ فالادراك يثيرها ، والوجدان أو الإنفعال هو الذى يميزها عن غيرها ، والنزوع هو مصدر القوة الدافعة التى تنجم عنها الأفعال والحركات الغريزية .

ومن مميزاتها الهامة :

١ — إنها تلقائية . فبمجرد وجود الغرائز المثيرة يندفع الإنسان إلى التصرف من تلقاء نفسه

٢ — إنها لحوحة مثابرة دائبة .

فاذا لم تصل الغريزة إلى غرضها استمرت تلح وتطلب الاشباع وتجدد نشاطها حتى تصل إلى الغرض حتى بعد زوال المؤثر الأصلى ، كما يحدث عند وجود العقبات والموانع أو قيام غريزة أخرى أو عند الاعياء .

٣ — إنها تمتنع بمجرد الاشباع بالوصول إلى الغرض .

٤ — تغيير طريقة التصرف إذا فشلت الطريقة الأولى .

٥ — القابلية للتعديل والتحسين بالتكرار والمران .

٦ — التوقع والتطلع للمؤثرات التى تثيرها . فتبرز وتخرج من حالتها السلبية ، وإلا ظلت كامنة سلبية ، أى أنها موجودة بالقوة وتظهر بالفعل .

٧ — أنها غائية أو لها غرض تسعى اليه :

آثار الغرائز فى سلوك الفرد والجماعة :

لو تعمق الإنسان فى دراسة آثار الغرائز ، ونظر إلى أبعد من المواقف الغريزية الطارئة ، والتصرفات المؤقتة . لوجد لكل غريزة أثراً هاماً فى سلوك الفرد والجماعة ، فالخوف المعقول أساس الدين والتقاليد والتشريع والقانون والنظم الاقتصادية والغضب الطبيعى أساس الوطنية والكرامة والدفاع عن المبادىء السامية ، والتسلط والخضوع أساس الحكم والنظم الإجتماعية والطاعة والاحترام والنفور يكون الذوق السليم ، والتقدم فى أساليب المعيشة والاستطلاع قوام العلم والمعرفة ، وغير ذلك مما سنفصله فيما بعد تفصيلا . فهى من هذه الناحية خير للفرد والجماعة ولكنها قد تتطرف لظروف طارئة ، فتخرج عن حدها الطبيعى وتنقلب شراً على الفرد المتطرف ذاته وعلى الجماعة ، فالسيطرة طبيعية لمن تتوافر فيه القوة أو العلم أو النواحى التى يمتاز بها عن غيره ، ولكن تطرفها يجعلها استبداداً ممقوتاً أو غروراً مرذولا ، وفى ذلك يقول الله تعالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتو عتواً كبيرا) وفى الأحاديث الشريفة : (لا يدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة من كبرياء) (ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه) (ليلتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان) ويقول الامام المراغى : (النسب غير مكتسب للانسان ، وليس للانسان إلا ما سعى ، فليس له شأن يعول عليه ويكون مداراً للفخر ، والتقوى هى المكتسبة وهى التى تجرى المقاييس عند الله تعالى ، فاذا جاز الفخر بشىء ، فان أحق شىء بالفخر هو التقوى فافخروا بها) (٢٢) .

والقتال طبيعي ولكن من الشر أن يقاتل الإنسان من لم يعتدى عليه ، وقد أقر الشرع مبدأ (العين بالعين والسن بالسن — والشر بالشر والبادى أظلم) ومع هذا أشار بالعفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس . وقال تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) ونهى عن قتل البنات والأطفال : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) وندد بالوأد أشد تنديد (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) وفى هذا يقول الإمام : (أن شركاءهم زينوا قتل أولادهم اتقاء للعار فى البنات وخوف الفقر فى البنين والبنات ، ففسدت فطرتهم ، وفقدوا عاطفة الرحمة فى قلوبهم) (٢٣) .

ونهى الدين كذلك من التحرش بالناس بدون سبب ، وقتال المسلمين بعضهم لبعض ، فالمؤمنون (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وفى الحديث الشريف : (لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) فالمؤمن كما يقول الإمام المراغى : (طاهر القلب طاهر الجوارح عف اللسان عف العين واليد ، وديع سمح ، مطيع لله ولرسوله ، لكنه متى دعا الداعى وحانت ساعة التضحية فإذ ذاك يكون أخا الجلاد أخا الحرب والطعن والضرب ، فهو رجل فيه صفات الرجل الكاملة ، وهو ملك فيه صفات الملائكة) ٢٤

والاستطلاع إذا تطرف صار تجسساً ممقوتاً على الناس ، وكشفاً لما يجب أن يستتر من أحوالهم وأمورهم . وفى هذا يقول الأستاذ المراغى : (نهى الله عن ظن السوء . ونهى عن التجسس وتتبع عورات المسلمين . ومن حق المسلم على المسلم ستر عوراته . ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى

فى الدنيا والآخرة) وقال عليه السلام لمعاوية : « إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم) وقال أبو بكر : (لو رأيت أحداً على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ولا دعوت إليه أحد حتى يكون معى غيرى) وقال الرسول : (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته) (٢٥).

تعديل الغرائز :

تكاد الغريزة تكون ثابتة نمطية عند الحيوان والنحل يجمع العسل ويبنى خلاياه وأقراصه ، والعناكب تنسج خيوطها ، والطير يبنى عشه . على نمط ثابت لايتغير من قديم الزمان . ولذا تكون غريزة الحيوان فى كثير من الأحيان عمياء — كما يقال — الى حد أنها قد تضر به ضرراً بليغاً ولكن الإنسان كما يقول دمفعل : (يعيش فى بيئة دائمة التغير ، فلا بد أن تكون غرائزه مرنة مرونة تجعلها مطابقة لمقتضيات الأحوال ، متمشية مع ظروفه وخبرته ونمو عقله) (٢٦).

فغريزته ليست ثابتة ولا عمياء كغرائز الحيوان ، ولولا مرونة غرائزه وقابليتها للتعديل لما استطاع أن يرقى ويسمو ويصبح سيد الكائنات . ويرى ماكدوجل : إن المظهرين الإدراكى والنزوعى للغريزة هما القابلان للتعديل .

فالمظهر الإدراكى يتغير بأن يرتبط المثير الطبيعى للغريزة بمؤثر آخر غير طبيعى . فالطيور التى تسكن جزيرة منقطعة لم تطأها قدم الانسان لاتفزع عند رؤيته لأول مرة ولكنها بعد أن يأخذ فى صيدها ببندقيته ذات الصوت المزعج لاتلبث أن تطير وتهرب كلما اقترب منها . وكذلك الأشياء

التى تشابه المثير الطبيعى قد تثير الغريزة كالمثير الطبيعى تماماً ، فالحصان يجفل ويخاف إذا رأى ثوباً ملقى فى الطريق ، لأنه يشبه الحيوان المفترس الرابض (٢٧) .

ويتعدل الادراك عن طريقة التجربة واستمرار الموقف الجديد ، فالنسور دائماً تتبع الجيوش فى الحروب القديمة لأنها عرفت بالتجربة أن وجود الجيش معناه وجود جثث القتلى ، فبالتجربة أصبح هذا المؤثر غير الطبيعى مثيراً لغريزة البحث عن الطعام ، وكذلك تتبع الطيور آكلة الديدان الفلاح عند مايحرث أرضه (٢٨) .

ومن الناحية النزوعية تتغير الحركات البدنية التى تصاحب الفعل الغريزى ، فالطفل يقاتل أول الأمر بيديه وأسنانه ورجله وكل أعضاء بدنه ، فإذا كبر يلاكم أو يصارع أو يستعمل أداة للقتال ، وقد يرتقى أسلوب التصرف ، فالطفل الصغير يركل الباب برجله إذا عجز عن فتحه ، فإذا كبر بحث عن أداة يفتحه بها وبالخبرة والتعلم يستطيع الإنسان أن يفرق بين نتيجة الفعل الغريزى والوسيلة التى توصل الى هذه النتيجة ، فى حين أن الكلب مثلا وقد عاش فى بيئة الانسان المتحضرة مدة طويلة لايزال يحفر غطاء الأرض من سجاد أو بساط برجليه كما يفعل الكلب المتوحش أو الريفى للبحث عن أجحار الحيوانات ، ولا نكون مغالين إن قلنا الجزء النزوعى فى غرائز الإنسان قلما يبقى على حالته الفطرية التى نجدها عند الحيوان والطفل والإنسان المتوحش .

أما الشطر الوجدانى للغريزة فأساسه النفسانى وهو الشعور الداخلى بالغضب أو الخوف مثلا يبقى دائماً ثابتاً فى طبيعة الانسان لايتغير ولا يتبدل ، والذى يتغير هو التغيير الخارجى الذى يظهر فى ملامح الوجه مثلا

فالمظهر الخارجى للغضب ، من احمرار الوجه ، والقبض على الأسنان ، ونظرات التشفى والانتقام ، كما يقول العالمان : « لفداى وجرين » يمكن أن تختفى عند الرجل العاقل الذى يستطيع كظم غيظه وضبط نفسه ، فى حين أن الشعور الداخلى بالغضب لايزال يتملكه (٢٩) .

ويلاحظ العالمان : « أوكدن وستورت » إن بعض الشعوب كالصينيين والهنود الحمر تحتم عليهم تقاليدهم الاجتماعية ضبط النفس وعدم إظهار أى تعبير خارجى عن الانفعال ، بعكس الفقراء والسذج الذين لايتقيدون بهذه التقاليد (٣٠) .

فى التربية والتعليم : جرت أساليب التربية والتعاليم القديمة ، على اعتبار الغرائز شريرة ومفسدة وغير منتجة ، لأنها كثيراً ماتدفع بالطفل ، بل البالغ إلى القيام بأعمال تخالف ما اتفق عليه العرف والأدب والذوق السليم ، وتضر بمصلحته ومصلحة الآخرين والكثير من الآباء والمربين يرون الهنات الهينات والهفوات البسيطة والغلطات البريئة التى تبدو من الأطفال عندما يندفعون بغرائزهم فى عمل ما ، قد تصبح عادة سيئة ، يصعب فيما بعد اقتلاعها إذا ماتكررت ، وهم بذلك ينادون بضرورة أخذ الأطفال ومن هم فى حكم الأطفال من الدهماء والسذج والأميين والريفيين بالشدة والحزم وإحاطتهم بسياج منيع من الأوامر والنواهى والقوانين والنظم القاسية ويشيرون باستخدام وسائل الإرهاب والتخويف والعقاب البدنى الشديد كوسيلة للتربية الناجعة والتهذيب الصحيح . فنرى من الأقوال المأثورة عن زعماء التربية فى القرن الماضى أمثال سبنسر الانجليزى وغيره (اقتصد فى استعمال العصى تفسد الطفل وليس من الممكن تربية الطفل الذى لايعرف الخوف) حتى ثورندايك عالم النفس الأمريكى يقول : أن الهفوات البسيطة التى

يرتكبها الأطفال حتى فى ألعابهم والعيوب الخلقية التى تبدو فى تصرفاتهم هى مقدمات أو دلائل قاطعة على حياة هؤلاء الأطفال فى المستقبل فالطفل الذى يكذب مرة واحدة وهو صغير ولا يعاقب على هذه الكذبة عقاباً شديداً قد ينشأ كذاباً محترفاً أو شاهد زور أو مزوراً، على أنه إذا صادفه شىء من الحظ قد يصبح سياسياً أو كاتباً روائياً، وهم الى حد ما يدينون بفلسفة المتشائمين التى ترى أن الإنسان شرير بطبعه، وإذا لم تقتلع من نفسه بذور الشر فى مبدأ نموها، فلا يمكن أن يحيا فى المستقبل حياة صالحة طيبة ولعله يكفى للرد على أصحاب هذه النظرة القاسية الجامدة، أنه ما من طفل فى العالم إلا وقد أخطأ فى طفولته مرة بل مرات دون أن يتعمد الخطأ وأفلت من العقاب، فان صح زعمهم كان كل إنسان مزوراً ومجرماً وفاسقاً شريراً، ومن الملاحظ أن الأطفال الذين يشبون فى جو قاس مشبع بالإرهاب المسرف والتأديب المخيف، يفسدون فيما بعد عند ما تطلق لهم الحرية، والذين يقتر عليهم فى المال وهم صغار يصبحون مبذرين متلفين عند ما يرثون أموال آبائهم المقترين.

وقد رأى المحدثون من علماء النفس فى آلاف الحالات التى درسوها ما للمعاملة القاسية والإرهاب والتخويف والوقوف فى طريق الغرائز الطبيعية من أثر سيء فى أعصاب الأطفال وسلوكهم وهم صغار، وانحراف فى شخصيتهم وشذوذ فى طباعهم وهم كبار، فنادوا بمبدأ الحرية فى التربية والتعليم فتجد ستانلى هول زعيم المدرسة الأمريكية وفرويد زعيم مدرسة اللاشعور والتحليل النفسى وآلافاً غيرهم يرون الغرائز بطبيعتها ليست خيراً ولا شراً لأنها تدفع الإنسان الى مجرد فعل الشىء الطبيعى، والشىء الطبيعى ليس خيراً ولا شراً فى ذاته وإنما الذى يجعله كذلك هو العرف وظروف البيئة وقوانين

المجتمع . والغرائز دوافع طبيعية يجب أن تشبع ، وحتى إذا اتجه الطفل وهو صغير فى اشباع غرائزه الفطرية نحو الأمور الضارة ، التى لا يقره عليها العرف والمجتمع ، فإنه مع هذا اذا أطلقنا له الحرية كاملة ، ليقع فى الخطأ ويرتكب النقيصة ، فانه سيجد فى هـذه الحرية ما ينفس عن نزعاته الضارة بحيث لا يصل الى دور البلوغ إلا وقد أخرج من نفسه كل النزعات الضارة كما يفعل المسهل فى جسم الإنسان . ولا يبقى لديه رغبـــة أو شىء يتوق للوصول اليه ، ولا يجد شيئاً ممنوعاً يغويه على أن يتبعه ، وبذلك يزول الغث فى طبعه ويبقى الثمين (٣١).

وإذا لم يكن هذا ميسوراً فى بيئتنا التى ألفت نظام الشدة والقمع ، فلا أقل من أن نتوسط بين الرأيين ، فنقول مع الموفقين ، إن الوقوف فى طريق الغرائز معارض لطبيعة الإنسان ومعطل للقوى الحيوية ، والحرية الكاملة قد يسىء الأطفال ، ومن هم فى حكمهم استعمالها ، أو على الأقل إذا نشأوا نشأة طبيعية صرفة ، قد يصعب عليهم فيما بعد الاندماج فى مجتمع غريق فى تقاليده ، عريق فى عرفه وآدابه ، فالأجدى إذن أن نجعل الغريزة أولا تحتفظ بكل نشاطها واتجاهها وأسلوبها ، ولكنا فقط نستبدل بالغرض الذى يبدو ضاراً ، غرضاً آخر من نفس نوعه يكون مشروعاً ومقبولا عند المجتمع ، ومحققا لمصلحة الفرد والجماعة ، فنجعل الطفل المقاتل المشاكس الذى يعتدى على الصغار أو يضرب الأرض والأحجار بقدمه فيتلف حذاءه ، يستمر فى المقاتلة بجسمه ورجله وقدمه وإنما فى لعب الكرة ، وهذا أمر مشروع ، وبذلك يستخدم القتال والمشاكسة فى عمل غير ضار ، أو نجعله رئيساً لفريق الكرة أو مراقباً للمذنبين والمعاقبين وهو منهم ، فيعاون المدرسة على حفظ النظام بمشاكسته ، وهذه طريقة الإبدال أو التعويض .

وفى الخطوة الثانية تنقل الغريزة كلها من مستواها الفطرى الحيوانى ومن أغراضها المادية الطبعية إلى مستوى أخلاقى وأغراض أدبية ومعنوية فتنقل الخوف على المصلحة المادية والأمور التى تعرض البدن والمال إلى الخطر وإلى الخوف على الكرامة والدين والوطن والأخلاق ، وتنقل المقاتلة من مهاجمة الأعداء الذين يعتدون على أشخاصنا ومصالحنا الشخصية الى القتال فى سبيل الوطن وفى رفع منار العلم .

وقد روى عن أبى موسى أن أعرابيا أتى الرسول فقال يارسول الله : الرجل يقاتل لمغنم والرجل يقاتل للذكر ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال الرسول: من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو فى سبيل الله ، وقد سمى الرسول جهاد النفس بالجهاد الأكبر وجهاد الحرب بالجهاد الأصغر ، وننقل التسلط من المباهاة والمفاخرة بالملابس والحسب والنسب إلى المباهاة بالتاريخ القومى والعمل على رفع شأن الأمة لنكون فخورين بها وبالانتماء اليها ، وبالجملة ترفع الغريزة من المستوى المادى الفردى المتعلق بالذات إلى المستوى المعنوى المتعلق بالجماعة وهذه هى طريقة الإعلاء أو السمو .

وخير مانختتم به هذا الباب المثل الرائع الذى ضربه العلامة تومسون :٣٢ لو اعتبرنا الدوافع الغريزية أو القوى المحركة للانسان نهراً سريع الجريان كثير المياه شديد التيار ، فإنا نستطيع أن نتحكم فيه بالطرق الآتية — أولا بالقمع أو المنع ، بأن نقيم سداً يمنع وصول الماء بتاتاً الى ما ورائه ويقف تيار النشاط الغريزى ، فيؤدى هذا الإجراء حتما الى أمور ، منها أن يتغلب الماء على السد فيفتته ويهدمه ويتمثل هذا فى ثورة الانسان على النظم والقوانين والعرف والدين ، كما يحدث عند الأشخاص ذوى الشخصية الكبيرة بطبعهم . أو يتغلب السد على الماء تماماً عند ما يكون النظام قويا قاسياً ،

فيحفر الماء له مجارى وسراديب تحت الأرض يركد فيها ويأسن ويصبح موقعاً للجراثيم والقاذورات، وهذا ما نجده فى الأطفال والكبار الذين يشبعون غرائزهم سراً بطرق شاذة غير مألوفة، وقد وقف المجتمع والنظام فى سبيلهم فيصبحون شاذين شذوذاً خلقياً، أو يندفع الماء على نفسه، فينقسم العقل على نفسه إلى قسمين كل منهما يصارع الآخر ويصرعه، وينتهى الأمر بالشذوذ العقلى والاضطرابات العصبية والجنون وانقسام الشخصية (٣٣).

فاذا خشينا أن نفتح السد كله ونترك الماء حراً يجرى من جميع جهاته، فيغرق الشواطىء والأرض، ولا نريد أن نصبر على هذه التجربة حتى يستقر فيما بعد فى الوادى الذى يناسبه، فلا أقل من أن نبنى من وراء السد قناتين تقللان من ضغط الماء على السد، فنضمن أن تسير الغرائز سيراً هادئاً مفيداً للفرد والمجتمع، وهاتان القناتان هما (الإبدال والإعلاء).

الباب الثالث

الإنفعالات

لكل غريزة من الغرائز الإنسانية إنفعال واضح محدود يظهر على الإنسان كلما وجد فى موقف يستفزها ويثيرها فتتميز به الغريزة عن غيرها من الغرائز وتتلون به نفس الإنسان، وتظهر آثاره على ملامح وجهه وحركات أطرافه، ويشعر به يتملكه فى داخل نفسه، وبالجملة يصطبغ به سلوكه وتصرفه مادامت الغريزة تتسلط عليه فى هذا الموقف الخاص، وفى الحديث الشريف: «يكاد المريب يقول خذونى» ويقول الرازى الطبيب: ولاحظ أن ما يجرى فى نفس الانسان من خواطر وما يعانيه من آلام يمكن أن يستشف من خلال الملامح الظاهرة، ويقول ابن المعتز:

تفقد مساقط لحظ المريب فان العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره فى الكلام فانك تجنى ثمار القلوب

ويقول آخر:

الود لا يخفى وإن أخفيته والبغض تبديه لك العينان

فالانفعال الأولى هو إذاً الشطر الثانى من الغريزة والمظهر الوجدانى لها، بحيث كلما أثيرت عند الانسان غريزة ما ظهر الانفعال على الانسان فى حالته الفطرية الأولية، فعند الهرب من الخطر يظهر الخوف، وعند المقاتلة والكفاح يظهر الغضب، وعند النفور يبدو الاشمئزاز، وغريزة السيطرة أو التسلط تتميز بالشعور الإيجابى بالذات فيشعر الإنسان بأنه موجود وجوداً إيجابيا فعالا مسيطرا، فى حين يتميز غريزة الخضوع

أو الاستكانة بالشعور السلبي بالذات فيحس الخاضع كأنه فقد ذاته وإرادته . وغريزة الاستطلاع بالتعجب من كنه الشيء الغريب الذى نستطلعه ، والتجمع بالائتناس بوجود الغير والغريزة الوالدية بالحنو على الصغير والحدب عليه (٣٤).

ونحن جميعاً نشعر بالخوف يتملكنا ويدفعنا للهرب أو يشل حركتنا عند ما نواجه موقفاً لم نتعرض فيه للخطر ، لا فى حياتنا فحسب بل وفى مصالحنا وحياة من يتصل بنا من أهل وأصدقاء ومصالحهم . ونشعر بالغضب يدفعنا للمقاتلة والكفاح إذا ما اعتدى علينا معتد أو وقف فى طريق رغباتنا حائل ، وتعطلت إحدى الغرائز عن الوصول لغرضها ، وتشعر بالتقزز والغثيان وربما القيء إذا نفرنا من شيء كريه أو رائحة نتنة ، أو طعام فاسد ، أو رجل قذر . وندرك ذاتنا موجودة بارزة تريد أن تتسلط وتسيطر على من هو أقل منا قدراً أو علماً أو مكانة . وبالعكس نشعر بذاتنا مستكينة وإرادتنا مسلوبة كأن لا وجود لها إذا واجهنا من هو أعلى منا شأناً وأكبر جاهاً أو علماً ، ونتعجب للشيء الغريب عند ما نراه لأول مرة ، وندهش له ونقلبه من نواحيه المختلفة لنتعرف كنهه ، والآباء منا يعرفون شعور الحنو على أولادهم والصغار من بنى الإنسان والحيوان .

ولكل إنفعال أولى مايميزه عن غيره - من تغير فى ملامح الوجه والنبض والنفس وإفرازات البدن والحركات التى يأتيها الإنسان وكذلك الشعور النفسانى الداخلى الذى يتملكنا يختلف فى كل حالة انفعالية عنه فى الحالات الأخرى .

وقد ذكرنا أنه لا يتعين أن تظهر التغييرات الخارجية على الإنسان فى كل حالة إنفعالية . فقد يستطيع الانسان كلما تقدم فى السن وزادت خبرته

وقويت إرادته — أن يكتم الانفعال فى نفسه فلا يظهر عليه شىء منه ينم عنه ، فيكون خائفاً بالفعل أو غاضباً ولكنه يضبط شعوره فلا تظهر عليه علائم الخوف أو الغضب مع أن الانفعال يتملكه من الداخل على كل حال ، بل إنه من حسن إيمان المرء وكمال خلقه أن يكظم غيظه فلا يدع الغضب يظهر على ملامح وجهه . وفى الأحاديث الشريفة : (مامن صرعة أعظم أجراً عند الله من صرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله) (ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) (من دفع غضبه دفع عنه الله أذاه) وقال الله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ويقول الإمام المراغى فى تفسير كظم الغيظ : « الكاظمين الغيظ الذين حبسوا غيظهم مع امتلاء نفوسهم منه ، وصبروا على الأذى والمكروه ، فلم تظهر عليهم آثار الألم عادة ، ولم يصدر منهم أذى لمن غاظهم » (٣٥) .

وليس معنى التسامح ولين العريكة والصفح أن يتلاشى الغضب فلا يشعر الإنسان به فى داخل نفسه ولا يظهر عليه شىء منه ، وإنما معناه منع التعبير الخارجى فقط ، فالرجل الذى لا يغضب جماد لا عقل له ولا كرامة .

وهذه الانفعالات الأولية أثرها بالضرورة وقتى إن كانت فى حالتها الطبيعية لأنها تظهر عند مايثير غرائزها مثير ، ثم تزول بزوال المثير ، أو بوصول الغريزة إلى غرضها واستكمال نزوعها ، فالإنسان نزوعها فالإنسان فى ساعة الخطر يخاف ويجرى فإذا زال الخطر زال الخوف وعاد الإنسان طبيعياً كما كان بعد قليل من الزمن يكفى لإزالة الاضطراب البدنى ، وقد يخاف شيئاً مافى ظرف ولا يخافه فى ظرف آخر ، ولكن قد يحدث فى بعض الأحيان أن يزيد الانفعال عن حده الطبيعى فتكون له آثار خطيرة تستمر

مدة طويلة فقد يشتد الخوف حتى يصبح رعباً يؤثر فى الجهاز العصبى تأثيراً سيئاً يبقى إلى حين ، أو يؤدى إلى الصرع والاغماء أو الشلل والموت .

الانفعالات الثانوية : على أن مواقف الحياة ليست من السهولة والبساطة بحيث تتطلب استعمال غريزة واحدة فى كل مرة ، فإن هناك مواقف تثير غريزتين أو أكثر فيشعر الإنسان بانفعالين أو أكثر يتملكانه الواحد تلو الآخر ، ويشعر بهذا التقلب فى نفسه ، فالطفل الصغير إن رأى زائراً غريباً قد يشعر بالخوف منه فيجرى بعيداً ثم يدفعه الاستطلاع فيعود أو يخاف فيجرى ، وهكذا يتملكه الخوف تارة فيتأخر والتعجب تارة أخرى فيتقدم وقد يأتلف الانفعالان ويمتزجان بحيث لانستطيع أن نفرق بينهما ، وفى هذه الحالة يتألف منهما انفعال واحد ممتزج أو ثانوى ، فنحن إذا رأينا مثلا قرداً يقوم بحركات بهلوانية ، أو طفلا ينشد نشيداً تشعر نحوه بانفعال التعجب لاغير ، أما إذا حضرنا محاضرة لأستاذ ضليع أو عالم كبير فإنا نتعجب من مقدرته وبراعة أسلوبه ونشعر فى الوقت بأنفسنا شعوراً سلبياً لعظم الفارق بيننا وبينه ، وهنا يتملكنا انفعال الإعجاب ، فالإعجاب إذن هو انفعال ثانوى ممتزج من التعجب والشعور السلبى بالذات .

وبالمثل نجد الشعور بالممنونية والاعتراف بالجميل مزيجاً من الحنو والشعور السلبى بالذات والحسد مزيجاً من الغضب والشعور السلبى بالذات إذ لا يكون هناك حسد إلا من المحروم لمن أنعم الله عليه فيتمنى الحاسد زوال النعمة عنه ، وقال تعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » أما الرهبة التى تستولى علينا فى بيوت العبادة أو عند مشاهدة الظواهر الخارقة للعادة أو مقابلة الملوك والحكام فهى مزيج من الخوف والإعجاب أو هى انفعال ثلاثى مزيج من الخوف والتعجب والشعور السلبى بالذات

وجميع الانفعالات الثانوية الممتزجة يمكن تحليلها إلى انفعالاتها الأولية .

الإنفعالات المعقدة أو المركبة : وهناك طائفة من الإنفعالات المعقدة التى لا يمكن تحليلها إلى انفعالاتها الأولية . وإنما هى حالات وجدانية تصطبغ بها النفس فتتأثر بها مدة طويلة تلازمها فيها فتنظر إلى الحياة بمنظارها كاليأس والأمل والندم والخيبة ، وهى لذلك تتصل بالحياة ذاتها ماضيها وحاضرها ومستقبلها — كالندم على الماضى واليأس للحاضر والمستقبل .

ومن هذه الإنفعالات المعقدة مالا يتبع غرائز وإنما يتصل بالعواطف التى سنشرحها فيما بعد ، فلا يوجد إلا مصاحباً لعاطفة ، فعاطفة الحب مثلا يتصل بها العتاب أو الغضب الملطف بالحنو . فاذا أساء الغريب الينا غضبنا غضباً شديداً قد يدفعنا إلى مقاتلته والبطش به ، أما إساءة الحبيب فيلطفها الحنو ويتقلب الغضب إلى عتاب .

والغيرة تنشأ من اتصال شخص آخر بالمحبوب لأن المحب يريد الإستئثار بمحبوبه ، ومن حقه أن يكون الحنو والود كله وقفاً عليه ، وبذلك تتملكه الغيرة إن شاركه فيه إنسان آخر ولو بقدر ضئيل .

ومن الإنفعالات التى تتبع عاطفة الكراهية الإنتقام ، وهو الغضب الملح الذى لا يهدأ بغير القضاء على المكروه أو إيقاع الأذى به ، وأخذ الثأر منه . والخجل يتبع عاطفة الإحترام بل هو أساسها ، فكل موقف يشعر فيه الإنسان أنه أتى أمراً منافياً للكرامة أو محقراً له بين الناس يثير فيه الشعور بالخجل والندم (٣٦).

الباب الرابع

العواطف

العاطفة الأولية : وهناك ناحية تتطور فيها الانفعالات — من أولية وثانوية ومعقدة — أو بعبارة أصح النزعات الوجدانية فتنظم وتأتلف حتى تصبح عادة قوية أو دعامة نبنى بها حياتنا الوجدانية بناء عالياً نرتفع به إلى مستوى العواطف الكاملة والشخصية القوية والخلق القويم .

ولأجل أن نفهم هذا التطور وكيف تسير الحياة الوجدانية فى طريق التنظيم نفترض أن مدرساً يعاقب تلميذاً ما مرة عقاباً شديداً ، فان هذا التلميذ يخاف المدرس وقت العقاب وقد يخافه خوفاً شديداً ، ولكن هذا الخوف لا يلبث أن يزول بزوال الظرف الذى استوجب العقاب ، أو يعرف التلميذ ذنبه ، وأنه أخذ جزاءه عليه ، فلا يكرر فعله ، بحيث إذا حضر المدرس فى الدرس التالى أو فى يوم آخر ولم يفعل التلميذ ما يستوجب العقاب فانه بالضرورة لا يخاف المدرس بل وقد لا يذكر الظرف السابق أما إن حدث أن عاقب المدرس التلميذ مرة ثانية فثالثة وتلاحقت مرات العقاب ، ولو بسبب فان الخوف المتكرر يتركز فى نفس التلميذ ويصبح أقوى اثراً أو أطول أمدا ، وينتهى الأمر بأن يصبح المدرس مخيفاً للتلميذ ومثيراً لغريزة الهرب كالمثيرات الطبيعية تماما ، فيخاف التلميذ من المدرس وقت العقاب فحسب وإنما من صوته وصورته ومنزله واسمه وكل مايتصل به ، فى غيابه وحضوره على حد سواء .

وبذلك يتحول الخوف من انفعال أولى طارىء تحدثه المثيرات الطبيعية

التى تثير غريزة الهرب إلى عاطفة أولية تربط التلميذ الخائف بالمدرس المخيف ، فالعاطفة الأولية تنتج من ارتباط انفعال أولى بمؤثر خاص يصبح بحكم استمراره وتكراره مثيراً لهذا الإنفعال بسبب أو بدون سبب ، وكذلك تكون عاطفة الغضب الأولية نحو شخص ما بحكم أنه أثار الغضب فى نفوسنا لسوء تصرفه ، أو إعتدائه علينا ، أو الوقوف فى طريقنا مرات عديدة متلاحقة حتى أصبحنا نغضب منه فى معظم الأوقات والظروف حتى إذا لم يحدث منه ما يسبب هذا الغضب .

ولكن العاطفة الأولية لا تستمر على حالتها البسيطة مدة طويلة فهى إما أن تزول وتتلاشى بمضى المدة بتغير وجهة نظرنا مع الزمن نحو من يثيرها ، وأما أن ينضم اليها إنفعال ثان فثالث فتقوى فى كل مرة وتنتهى إلى عاطفة قوية متسلطة تتكون من عدة إنفعالات متألفة منتظمة حول هذا الشخص بحيث لو وجد بشخصه أو من أو ما يتصل به ، تثور فى النفس بعض هذه الإنفعالات أو كلها ، فالتلميذ الذى تكونت عنده عاطفة الخوف الأولية نحو المدرس يشعر بعد مدة بالنفور من المدرس والمدرسة . وينضم هذا النفور إلى الخوف فتزداد العاطفة الأولية قوة وتصبح عاطفة ثانوية مكونة من انفاعلين ، ثم يثور التلميذ بعد ذلك على هذه المعاملة القاسية فيغضب ، ويتعجب من أحوال هذا المدرس ، وقد يشعر فى نفسه برغبة ملحة للانتقام منه . ويستولى عليه الخوف واليأس ، وفى كل مرحلة من هذه المراحل ينضم إلى العاطفة الثانوية إنفعال جديد ، إلى أن يصل إلى عاطفة الكراهية الكاملة ، وهكذا يتدرج من انفعال الخوف الأولى إلى عاطفة الخوف الأولية . إلى عاطفة ثانوية من خوف وغضب ، وينتهى بالكراهية وبالعكس قد يتدرج من الحنو والإعجاب والتقدير إلى الصداقة والإحترام

وينتهى بعاطفة الحب الكاملة . وهذه هى المرحلة الأخيرة فى التطور الوجدانى التى يرقى إليها الإنسان عن طريق العواطف الأولية ذات الإنفعال الواحد إلى العواطف الثانوية ذات الإنفعالين فأكثر ، وأخيراً إلى العواطف الكاملة التى تنظم أكبر عدد من الإنفعالات يمكن أن يتجمع حول شىء واحد .

فالعواطف إذن ميول وجدانية مكتسبة تتكون بحكم الظروف والبيئة والإختلاط بالناس وإن كانت أسسها إنفعالات مصاحبة لغرائز موروثة (٣٧) .

ولكل عاطفة تاريخ نمو وحياة وتطور ، إذ تبدأ جنيناً صغيراً من انفعال واحد ثم ينمو ويترعرع كلما انضم إليه إنفعال آخر ، حتى تنضج وتكمل فتصير عواطف كاملة — من حب أو كراهية ، أو احترام للذات والواجب ، ويسرى عليها ما يسرى على كل كائن حى ، فهى فى حاجة إلى غذاء ينميها ورعاية خاصة وعناية مستمرة فالحب فى حاجة دائمة إلى إذكاء الحب وإبقائه حياً نامياً وإلا خمدت جذوته وانطفأت وهرمت العاطفة واضمحلت وماتت .

وقد صور شوقى رحمه الله تطور العواطف تصويراً لطيفاً فى بيتين :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
ولقاء يكون فيه دواء وفراق يكون فيه الداء

ولذلك نهى الرسول عن نظرة الفجأة وأمر من سأله عنه أن يكف فلا يتبع النظرة بأخرى لأنها قد تثير فيه شهوة الغريزة التناسلية أو تعقبها صلة تؤدى إلى عاطفة تورط الإنسان فيما لا ضرورة له ، أو تدفعه إلى الفاحشة وانشغال البال والقلب .

وفى الحديث الشريف : « العينان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، والفرج

يزنى ، فالجوارح تؤدى إلى الزنا ، وفى حديث آخر : « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليكسفن الله وجوهكم » .

العاطفة الكاملة : إذا انتظم أكبر عدد ممكن من الإنفعالات النفسية حول شىء ما تكونت فى نفس الإنسان عاطفة كاملة نحو هذا الشىء .

ويرى العلماء المحدثون أن العواطف الكاملة (النموذجية) ثلاث : الحب ، والكراهية ، واعتبار الذات (أو احترام الذات أو عاطفة الكرامه والواجب) .

ولما كانت الانفعالات محدودة العدد ، لزم أن تشترك العواطف الكاملة فى معظم هذه الانفعالات ، فالحب والكراهية يتألفان من انفعالات — الخوف والغضب والشعورين الإيجابى والسلبى بلذاته والتعجب . أى أن كلا من هذه الانفعالات موجود فى كل من عاطفتى الحب والكراهية ، والفارق فى الحالين يكون فى اتجاه الانفعال نحو مركز العاطفة أو بعيداً عنه ، منصباً عليه أو على غيره . فالحب يشعر نحو محبوبه أو الشىء الذى يحبه بالخوف عليه والإشفاق والقلق إذا تعرض للخطر ، والغضب عند الاعتداء عليه كما يغضب لنفسه بل وأشد ، ويشعر بنفسه شعوراً إيجابياً عند تسلطه عليه والاستئثار به ، والظهور أمام الناس بمظهر الجدير بهذا الحب ، ويشعر كذلك نحوه شعوراً سلبياً يتمثل فى تذلله وخضوعه ويتعجب من كل أعماله ويعجب بها ويراها بعين الرضا حتى عند الإساءة ويشعر بالحزن لفقده وغيابه والسرور إن ناله خير والشكر والامتنان لمن يحسن إليه . أما فى عاطفة الكراهية فإنا نخاف الشىء المكروه ذاته ونغضب منه وممن يناصره ونشعر نحوه شعوراً سلبياً ، لأن الإنسان لا يكره أحداً (فى بعض الآراء) إلا إذا شعر فى نفسه بأنه أقل منه مكانة أو مقدرة فى ناحية من النواحى وإلا اكتفى

باحتقاره من دون أن يكرهه ، ويتعجب من سوء أعماله وتصرفاته التى لا تصدر فى نظره من إنسان عاقل ، ويقلل من قدرها ويشعر بالسرور إن أصابه شر ويتمنى له الأذى .

ولكن على الرغم من هذا الإشتراك فان عاطفة الحب تنفرد وحدها بانفعال الحنو ، كما أن عاطفة الكراهية تنفرد بالنفور ، بل أن تكون عاطفة الحب يكون أسرع وأقوى لو بدأت بالحنو ، وعاطفة الكراهية لو بدأت بالنفور .

مركز العاطفة : ولا يتعين أن يكون مركز العاطفة شخصاً نحبه أو نكرهه فقد يكون شيئاً مادياً يحبه الإنسان أو يكرهه كما يحب إنساناً سواء بسواء .

فالبخيل يحب ماله ويتعشقه ويتلذذ بلمسه ومرآه ، ويرى فيه سعادته وسروره كما يفعل الحبيب تماماً ، وكذلك العاديات والكتب عند من يهوى جمعها . وقد يكون المركز فكرة أو مبدأ فيحب الانسان دينه ووطنه ، أو الإنسانية والفضيلة أو يحب فناً كالموسيقى ، فيكرس له كل وقته ويحرص عليه ويقاتل فى سبيله ويخاف عليه من كيد المخالفين والمعارضين ، ويتملكه نحوه حب عميق وكراهية لما عداه ، قد تصل به إلى درجة عظيمة من التعصب .

عاطفة الحب : تناول الناس من قديم الزمان — من فلاسفة وشعراء وأدباء — هذه العاطفة بالدرس والتحليل وجعلوها بحق على رأس العواطف الإنسانية ، وعرضوا للصلة بين المحبين وما يربطهم من شعور متبادل ، وما يجده كل منهم فى نفسه من مشاعر وأحاسيس نحو الطرف الآخر . فترى عبد الله بن طاهر ذا الرياستين يقول فيه عند ما سأله المأمون عنه « يا أمير المؤمنين : إذا تقاومت جواهر النفوس بوصل المشاكلة انبثت

منها لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء فتتحرك لإشراقها طبائع الحياة فيتصور من ذلك خلق خاص للنفس متصل بجواهرها يسمى الحب ». وحقيقة النفس عند المتصوفة حالات أو أنواع من الشعور باللذة والألم، وأهم ما فى ذلك هو الحب الذى يسموا بنا إلى الله، وليس هو الخوف أو الرجاء، وليست السعادة معـــرفة ولا هى إرادة ولكنها فى الاتحاد بالمحبوب (٣٨).

ويقول إخوان الصفا: « المحبة أسمى الفضائل — وهى المحبة التى نهايتها الفناء فى الله المحبوب الأول وتظهر هذه المحبة فى هـذه الحياة نفسها على صورة الصبر المشبع بروح التقوى والرضا عن جميع الخلق ».

ويقول ابن مسكويه: « أساس الفضائل وأول الواجبـات جميعاً هو محبة الإنسان للناس كافة، وبدون هذه المحبة لا تقوم جماعة قط » (٣٩).

ويرتب درجات المحبة فى موضع آخر فيقول: « أحـكام الشريعة لو فهمت على وجهها الصحيح لـكانت مذهباً خلقياً أساسه محبة الإنسان للإنسان، والدين رياضة خلقية لنفوس الناس، وغاية الشعائر الدينيـــة، — كصلاة الجماعة والجمع — هى أن تغرس الفضائل فى نفوس الناس، فهى تعلمهم محبة الجار فى أوسع صورها وأعلى درجات الحب عنده محبة العبد الخالصة ومنها محبة الحكماء عند تلاميذهم، وبعدها محبة الوالدين » (٤٠).

وليس الحب صلة بين الرجل والمرأة فحسب، فإن الصداقة نوع سام من الحب، فيها كل مافى الحب المـألوف من الألفة والتوافق، بل إن بعض المفـكرين والفـلاسفة يضعون الصداقة فوق الأخوة والقرابة والنسب، فأرسطو يراها امتداد فى حب الإنسان لذاته حتى يشمـل غيرها، ومن ثم يكون الصديق فى منزلة النفس. ويقول البهاء زهير فى وصف ليلة:

قطعتها ولا تسل عن الخبر بصاحب حلو الحديث والسمر
تحضر كل راحة إذا حضر

ويقول الطائى :

ذو الود منى وذو القربى بمنزلة وإخوتى أسوة عندى وإخوانى
عصابة جاورت آدابهم أدبى فهم وإن فرقوا فى الأرض جيرانى
أرواحنا فى مكان واحد وغدت أبداننا بشآم أو خراسان

وعن سعيد بن المسيب . قال — كتب إلى بعض إخوانى : « وعليك بإخوان الصدق فكن فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرخاء وعدة عند عظيم البلاء ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى » .

والمثل الأعلى للصداقة يتمثل فى حب المؤمن للمؤمن وصداقته له ، فإنها تجعلهم إخوة متحابين ، متساويين فى الحقوق ، مشبعين بروح الإيثار . والله تعالى يقول فى كتابه الكريم : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » وفى الأحاديث الشريفة « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمته أدناهم » و « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وفى حديث آخر المسلم « أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه »

ويقول الإمام المراغى : « الإيمان عقد بين أهله ، من السبب القريب والنسب اللاحق ، وهو إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ، ولم يتقاصر عن غايتها » (٤١) .

ومن الناس من تغريهم الملذات والمتع المادية ، فيجعلون مركز عاطفتهم

شيئاً مادياً كالمال أو النساء، فتنصب حياتهم على الإكثار ويحدون المتعة كلها فى دوام الاتصال به، كما يشعر المحب نحو حبيبه أو المؤمن نحو المؤمن فالبخيل يتمتع برؤية ماله ولمسه وسماع رنينه، بل إنه ليحتضنه ويقبله ويتغزل فيه كما يفعل المحب الواله. والله تعالى يقول: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة» ومن الناس من يحب المال لذاته وهذا بخل وشح مذموم.

وفى الحديث: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» ومنهم من يتخذ المال وسيلة للجاه والرفعة وقضاء الحاجة. وفيه يقول المراغى: «الأموال محبوبة للنفس، ركز فى طبيعة الإنسان الحرص عليها، فهى الوقاية وهى العون عند الشدة، بها الحياة ومنها الاستمتاع بما تنازع اليه النفس وتتقاضاه الطبيعة من اللذات والشهوات، وبها يدرك العز وينال الفخر والجاه» (٤٢).

ويروى الغزالى عن عمر بن يحيى بن خالد بن برمك: أنه كان بخيلا شديد البخل، وله نسيب بائس. فقال له بعضهم: أنت منه بهذه المنزلة وأثوابك ممزقة، فقال: إنى لا أقدر على أبرة أخيطها بها ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً أبراً ثم جاء جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب أبو يوسف يستعيرون منه أبرة يخيطون قميص يوسف الذى قد من دبر ما فعل.

عاطفة الكراهية: وعاطفة الكراهية خطوة ضرورية فى تكوين الإنسان حتى يصل إلى أعلى مستوى للسلوك الإنسانى، فهى تنظيم الانفعالات المقاتلة المستبدة، واستغلال لنشاطه فى القضاء على أشياء مكروهة مرذولة، وبغيرها لا يتم ثمة إصلاح اجتماعى أو أخلاقى أو ثورة على النظم القديمة

الضارة . ولا بد فى كل مجتمع إنسانى من وجود طائفة من الناس ، امتلأت نفوسهم بالشر ، وفسدت طبائعهم وانحطت أخلاقهم ، وكان لزاماً على الطائفة الصالحة أن تقفهم عند حدهم ، أو تقضى عليهم إذا فشلت وسائل إصلاحهم ، ولا يتم هذا بغير عاطفة الكراهية فى نفوس المصلحين للصفات المذمومة والسلوك المعوج ، والمجرمين المفسدين .

ولكن المؤمن نهى عن كراهية أخيه المؤمن ، وأمر بأن يصطنع كل معروف ويقابل السيئة بالحسنة ، ويدفع بالتى هى أحسن ، « فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . والله تعالى يقول (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً) . لأن الكراهية بين المؤمنين تؤدى إلى التنازع بالفشل (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين) وتدفع به إلى غيبة أخيه المؤمن ، وهى كما يقول الإمام المراغى : (من الغيظ وهياج الغضب ، فيذكر الإنسان عيوب غيره لشفاء النفس من غضبها ، ومجاملة الرفقاء ، وإرادة أن يرفع الإنسان نفسه بالنقص من غيره (٤٣) .

وقد نهى الإسلام عن الغيبة وما يتبعها من السخرية بالناس والغمز واللمز والتنابذ بالألقاب (ولا يغتب بعضكم بعضاً) (يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب) . والمفرط فى كراهيته مبغوض من الله والناس وإن كان على حق ، وفى الحديث الشريف : (أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم) والألد الشديد فى خصومته (٤٤) .

عاطفة اعتبار الذات :

وهناك مستوى آخر للعواطف الإنسانية أسمى من مستوى الحب والكراهية ، لايصل إليه إلا نفر قليل من الناس يستطيعون أن يخضعوا حبهم وكراهيتهم للواجب والكرامة ، فهم يحبون الأشخاص والأشياء والمبادىء التى يجدون فى حبها الشىء الكثير من السرور والمتعة وصفاء النفس وراحة البال ، ولا يكرهون لأنهم يجدون فى كراهيتهم إشباعاً لشهوة الانتقام والسيطرة والظهور وتحقيق المصالح ، وإنما هم يضحون بمتعتهم ولذتهم ومصالحهم المادية والأدبية فى سبيل الواجب والكرامة ويخضعون حبهم وكراهيتهم ، فيحبون ويتعاونون مع الأشخاص الذين يقضى الواجب بالتعاون معهم لتحقيق المصالح العامة والمثل العالية ، ولو كانوا قبلا من أعدائهم ، ويتناسون الماضى ، ويصفون النفوس من ضغائنها ويتجاوزون عن كل اعتبار سابق . لأن الظرف القائم يقتضى التعاون فى الخير ، وقد يضحون بأموالهم وأولادهم فى سبيل الوطن أو الدين وهم مصدر الحب الإنسانى وزينة الحياة الدنيا ، ويستعذبون الحرمان ، ويستمرئون طعم التضحية ، فعاطفة احترام الذات التى تمنع الإنسان من فعل مايمس احترامه لذاته ، أو ينافى الكرامة ، أو يعطل الواجب ، هى تاج العواطف البشرية ، وآخر مرحلة فى كمال السلوك الإنسانى . ذلك أن أساسها الخجل ، كما أن أساس الحب الحنو وأساس الكراهية النفور ، فالذى يحترم ذاته يخجل من ارتكاب النقائص والتقصير فى أداء الواجب ، ويحب الأمور المحترمة ويكره المحتقرة ، لأنه يرى فيها صوراً مجسمة لشعوره النفسانى ، ولا يمكن أن يعرف الاحترام للناس إلا من يعرف كيف يحترم نفسه ، والعظيم يعرف

العظماء ويقدرهم حق قدرهم ، والناس كذلك لا تحترم احتراماً صادقاً إلا من يحترم نفسه ، ومن بهن يسهل الهوان عليه .

أما خضوع المرؤوس للرئيس وتزلف التابع للمتبوع فخنوع ومذلة تحت ستار الاحترام المموه الكاذب .

ويقول الإمام المراغى فى معرض الكلام عن التعصب للرأى « فى هذه الأحوال يصعب جداً الرجوع عن الآراء إلا على من وهبه الله حب الإنصاف ، وكان الحق عنده أغلى مما يظنه شرفاً وكرامة عند الأتباع وعند الناس — هذه الحالة لا يمكن أن تزول إلا إذا أخلص الناس فى حب الحق ، وآمنوا بأن الحق أغلى من الآراء والأفهام » (٤٥) .

وليس من شك فى أن العواطف من أهم الأسس التى يبنى عليها سلوك الأفراد الجماعات وخلقهم ، لأنها نظام تام للحياة الوجدانية والنزوعية ، وبدونها تصبح الحياة فوضى ليس فيها نظام أو استقرار واستمرار ، وتصبح كل علاقاتنا الاجتماعية أسيرة للدوافع الغريزية ورهناً للظروف الطارئة ، وانفعالاتنا جامحة غير مستقرة ولا نستطيع أن نتحكم فيها أو نقدر نتائجها أو نوجهها فى عمل صالح منتج ، ولا يكون هناك مجال لاستخدام الإرادة فى الحد من رغباتنا وشهواتنا ، وتكون أحكامنا على الأشخاص والمواقف سطحية متقلبة ، فلا تصل إلى المبادىء الخلقية المتينة ، مادامت تتفجر من ينبع العواطف .

ولكن على الرغم من أن مرحلة العواطف قد لا يستطيع الكثير من الناس أن يصل إليها ، ومستواها فوق سائر مستويات التصرف والسلوك ، فإنها تحتاج بدورها إلى تنظيم ، حتى تصبح مجموعة واحدة عاطفية تترابط فيها كل العواطف . فتسير فى طريق واحد نحو غاية سامية يسعى الإنسان

لتحقيقها ، أو مثل عال يتطلبه ، كما تنظم الإنفعالات فى عواطف ، لأن بقاء العواطف منعزلة تعمل كل منها فى طريقها غير متعاونة مع الأخرى ، يجعل الإنسان رهن الظروف ، أو تدفع به إلى التطرف والتعصب الممقوت ، للشىء الذى كون نحوه هذه العاطفة ، وتسلبه إرادته وتخضعه لسلطانها ، وتبعد به عن مستوى الخلق القويم كما تفعل الغرائز ، وتستبد به عاطفة الحب مرة وعاطفة الكراهية مرة أخرى ، ويضيع نشاطه بينهما ، لاختلاف مراكز العواطف وتعددها . كأن يتردد الإنسان فى حالة الدفاع عن الوطن بين حبه لحياته وذاته وأولاده ، والتضحية بهذا كله فى سبيل حبه لوطنه أو تردد المغامر بين حب الشهرة ، وكراهية المخاطر التى يتعرض إليها فى طريقه لها . وقد يبدو صاحب العاطفة الواحدة القوية المتسلطة ذا شخصية قوية ، ولكنه فى الواقع بعيد كل البعد عن المثل الكامل ، فهناك إذن خطوة أخيرة لا بد منها ، وهى ربط العواطف الثلاث الكاملة ، وإخضاعها لعاطفة اعتبار الذات ، فهى وحدها إذا قويت وسادت وتحكمت فى سلوك الإنسان تناولت جميع نواحى خلقه ، وخلقت فيه الدوافع والإرادة القوية ، فإذا ما اتصلت بمبدأ سام وغاية نبيلة وصلت بالإنسان إلى ما ليس بعده غاية من كمال الخلق .

عاطفة الدين :

يرى علماء الغرب أن عاطفة الكرامة هى أسمى ما يتوج به الإنسان سلوكه وتكوينه الخلقى ، ولكنا معشر المسلمين يجب أن نبحث عن هذا التاج فى تعاليم الإسلام وأن نجعل من حب الدين والإسلام أسمى عاطفة إنسانية ، وأن نبنى حياتنا الوجدانية على أساس سليم من حب الله ورسوله الكريم وتعاليم القرآن الكريم والسنة الحميدة ، لأن الإسلام كله تنظيم لحياة

البشر من جميع نواحيها . وهو كما يقول الإمام المراغى : يريد رجلا عاملا فى الحياة مهذب الأخلاق ، طاهر الأعراق ، قوياً لا يهاب الموت ، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن ، ويذود عن العشيرة — ويريد رجلا رحيما حسن المعاشرة سلس القياد لأهله وعشيرته وبنى وطنه ، ويريد رجلا لا تلهيه الدنيا عن الإتصال بالخالق وأداء حقوقه (٤٦) .

والدين يطلب رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، رجالا باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . رجالا خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله فى الأرض ، يعلمون سرها ويسخرونه للخير ودفع الأذى ، يدفعون إلى عوادى الزمن بمناكبهم كأنها بنيان مرصوص ، يعرفون للكرامة قدرها ، وللعزة موضعها ، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل ، وأن الآخرة خير وأبقى (٤٧) .

والقرآن اشتمل على المعارف الإلهية وأحوال العقائد وقواعد الآداب ووضع للناس أصول العدل ، وقواعد الأخلاق ، وبين حق الفرد وحق الجماعة ، ووضع نظام الأسرة ، ووضع الإنسان الوضع اللائق به فأباح له ما فى الأرض جميعاً ، ولم يمنع عنه إلا الخبائث ، وحدد له الحدود اللائقة ، فلم يتركه يعامل معاملة السائمة ، ولم ينزله منزلة الملائكة ، وحبب إليه المعرفة ، وكان وسطاً عدلا شهيداً على الشرائع وعلى الأمم (٤٨) .

ومن المسلمين من تشغله الدنيا بمطالبها ومتعها ، ولا ينعطف نحو الدين إلا بقدر ما تتطلبه أوامره ونواهيه ، فيفعل الأوامر طمعاً فى الثواب ، ويتجنب ما نهى عنه خوف العقاب ، ومن ثم يرتبط الدين بغرائزه ، كما ترتبط سلوك الطفل بأوامر الوالدين . والإنسان المتوحش بقوانين الجماعة ، وهو فى مأمن وفى هدوء بال ، ما دامت عينا الوالدين لا ترقبه ، ويد الجماعة لا

تمتد إليه . ولكن المسلم الذى يسمو بدوافعه ، فيكون فى نفسه عاطفة حب للدين ، يراقب نفسه فى كل الظروف والأحوال ، لأن الدين يملك عليه شغاف قلبه ويحتل بؤرة وجدانه ، فهو دائماً معه متصل به ، ويجد فى هذه العاطفة الدينية عاصماً له من الفسوق . منفراً من العصيان ، لا خوفاً من العقاب أو طمعاً فى الثواب ، بل لأن العاطفة الصادقة تتطلب منه أن يسلك الطريق المناسب لها . والله تعالى يقول : « ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان » . ثم هو يحاول جهده أن يحيى حياة الرسول الذى يحبه ليكون جديراً بهذا الحب الشريف .

ويقول الإمام المراغى فى شرح ذلك : « لأن المؤمنين ورئيسهم الأعظم منهم ، يجب أن يكونوا بعيدين عن الدنايا والكذب الذى يؤدى إلى المفاسد ، ويجر إلى ويلات قد يشترك فيها النبى الأكرم ، ولا يليق بمن يحبه ويؤمن به ويعظمه ، أن يوقعه فى مثل هذا الخطر الذى يؤدى إلى الكذب ، وهذا الحب وهذا الإجلال يدعو إلى الإحتراس من وقوع المحبوب فيما لا يليق أن يقع فيه (٤٩) .

ويطالع المرء فى كتب السيرة صوراً رائعة لحب الرسول فى نفوس الصحابة والتابعين (٥٠) .

وغاية هذه العاطفة الشريفة حب الله والفناء فيه بحيث لا يكون فى القلب إلاه . ويقول الكتاب الكريم : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله » والمؤمنون كما يقول الإمام المراغى : « لا يجعلون شيئاً من الأشياء شريكا له ، مستحقاً للعبادة ، له حق التحليل والتحريم ، وحق تقديم القربات ، وحق الدعاء والاستغاثة » (٥١) .

ويرى الفلاسفة والمتصوفون والأئمة الذين تشبعوا بروح الدين وحب

الله منتهى سعادة الدنيا والدين فى الإتصال بالله ، والاتصال بالناس فى حدود حب الله .

وفى هذا يقول ابن ماجه عن العلماء : « ولما كانوا متحابين فإن المحبة هى التى تقرر نظام حياتهم كلها ، ولما كانو أحباباً لله — وهو الحق — فانهم يجدون راحة نفوسهم فى الاتحاد بالعقل الفعال الذى يفيض المعرفة على الإنسان » (٥٢) .

ويقول ذو النون معبراً عن رأى المتصوفة : « إذا وجدت ربى فقدت قلبى ، وإذا وجدت قلبى فقدت ربى ، والمقصود بالقلب التعلق بالدنيا وعواطفها

ويقول الغزالى : « النفس تبلغ سعادتها العظمى متى أحست بفنائها فى الله فالأشياء كلها وحدة يؤلف بينها الحب ، والعبودية الكاملة لله تسمو على الخوف من العقاب أو رجاء الثواب ، وتتجاوزها إلى مقام فيه تحب النفس خالقها حباً روحانياً » (٥٣) .

وقد قسم ابن سينا أصحاب هذه العاطفة إلى مراتب (٥٤) .

فمنهم العابد المواظب على العبادات . والزاهد المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها ، يترك لذات الدنيا مرتقباً ثواباً أخروياً — وأخيراً العارف المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً لشروق نور الحق فى سره فيعبد الله حق عبادته ، ويحبه منصرفاً إليه بفكره ، لا يتبع بذلك غير ذات الحق ، فلا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً . فالعارف فى أرقى مقام لأنه فى زهده تنزه عما يشغل به عن الحق ، وفر من كل شىء غير الحق ، فى حين إن زهد غير العارف معاملة ما — كأن يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة — وعبادته معاملة ما — كأن يعمل لأجرة يأخذها فى الآخرة هى الأجر والثواب .

الباب الخامس

تطور السلوك الانسانى

يتدرج الإنسان من المستوى الغريزى المناسب للحيوان إلى مستوى العواطف الكاملة الخليق بالإنسان فى مستويات أربعة :

فهو فى حالته الفطرية ونشأته الأولى التى يكون فيها طفلا أو متوحشاً يخضع أولا لغرائزه ، ويتصرف كما تدفعه ، ولا يستطيع أن يقدر نتيجة سلوكه أو يعدل فيه أو ينشد غاية غير الغاية السريعة الملحة التى تريد الغريزة أن تشبع نفسها بها ، وليس لإرادته من سبيل لضبط نزعاته وكبح جماح شهواته . فهو يهرب إذا اشتم رائحة الخطر قبل أن يقدر مبلغه أو يعلم مصدره من غير أن يعد الهرب جبناً وخوراً ، وقد يتخذ طريقاً للنجاة ، فينجو من خطر مؤقت لما هو أشد منه خطراً . ويقاتل من هو أقوى منه مثلا إذا غضب من قبل أن يتدبر نتيجة القتال ، ويعتدى على الناس لأخذ ما ليس له فيه حق ، من غير أن يعد ذلك اغتصاباً .

فإذا كبر قليلا تلقاه من هو أكبر منه — سناً وجسماً ومقاماً — من الوالدين وأولياء الأمور والمربين والمؤدبين ، وبدأ المشرف على أمره يحاسبه حساباً مادياً عسيراً ، يرسم له شئون حياته رسماً دقيقاً ، ويفرض عليه نظاماً ثقيلا ، فيعاقبه عقاباً بدنياً مؤلماً إن أخطأ ، ويثيبه ثواباً مادياً مريحاً إن أصاب ، فيتألم للأولى ويسر للثانية ، ويتخذ الألم والسرور مقياساً لتصرفاته . فيفعل ما يحقق له السرور ويتجنب ما يحدث الألم وتدور حياته كلها فى هذا الدور حول محور السرور والألم الماديين ، وبتأثير هذا

المحور يتعلم كيف يحد من نزواته وغرائزه بعض الشيء، فيتجنب الوقوع في الخطأ وهو يطلبه ويشتهيه ويقوم بما يرضى الغير وهو كاره له، ولو لم يعرف للحالين سبباً أو حكمة، وينقلب بذلك من مخلوق أناني إلى إنسان مادي نفعي.

ويقول الإمام المراغي «وللمؤمنين درجتان عليا وهي ترك الشر لأنه خروج على النظام الإلهي، ودنيا وهي ترك الشر خوف العقاب» (٥٥).

ولكن الخلق الاجتماعي المبني على مجرد الخوف من العقاب وإرضاء صاحب السلطان لا يليق بالإنسان الممتمدين، فهو خلق العبد الأسير المسلوب الإرادة. ولا يكون الرجل ذا خلق مقبول إلا إذا فعل الفضيلة بوازع من نفسه غير متطلع إلى نتيجة يتطلبها أو منفعة يحصلها، ولو كان مطيعاً للقوانين، يعمل بالأوامر وينتهي بالنواهي فهو إذا كبر وارتقى عقله واتسعت مداركه وتجاربه وازداد احتكاكه بالناس، واندمج في الجماعة ووقع تحت تأثير سلطانها، يدرك أن الناس قد تواضعت على أشياء يستحسنونها ويميلون إلى من يفعلها، وأشياء أخرى يستهجنونها ويذمون من يقومون بها، فيدخل في سلوكه عامل جديد، هو إرضاء الناس ثمناً لثنائهم ومديحهم وتجنب مايجلب النقد والمذمة. وبذلك يتعدل الثواب والعقاب الماديان بعض الشيء، فيصبحان معنويين، متمثلين في المدح والقدح، ويدافع هذين العاملين يتصرف الإنسان، فتجيء تصرفاته خاضعة لرقابة المجتمع وأحكامه والعرف والتقاليد، فيفعل مايرضى الناس ويتظاهر به ولو كان كارهاً له، ويبتعد عما يذمه الناس وإن كان في نفسه يرضى عنه ويود لو يدعو إليه، ومن الناس من يضحي بما يملك في سبيل الحصول على الشهرة وحسن الأحدوثة، والسكوت عن الحق المؤلم خوف النقد والخروج على

الجماعة ، وقد يطغى الألم من ذم الناس على السرور من إرضاء الضمير ، فيندفع الإنسان فى غير الطريق السوى ، وفى هذه المرحلة يحب الإنسان أشياء ويكره أشياء أخرى ويتصرف فى مستوى العواطف ، ولكنه ليس حباً خالصاً لله والضمير ، وفى الحديث الشريف : « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له بما كان اشتغالك ؟ فيقول بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارىء ، وقد قيل ذلك فيؤمر به إلى النار » .

وأخيراً ينظر الإنسان إلى نفسه مجردة عن كل اعتبار وإلى أعماله بالمنظار الذى يرضى ضميره وترتاح إليه نفسه ، فيسمو فوق المديح ، ولا يغريه سماعه وفوق النقد فلا يؤذيه ولو كان شديداً ، ويصبح رجلا ذا كرامة ودين ، واحترام لنفسه ، لا يفعل إلا ما يراه حقاً ولو أضر به تمسكه بالحق ، ويتفانى فى مبدئه ولو كان فيه هلاكه ، ويتجنب النقائص خجلا من كل مالا يتفق وكرامة الرجل الفاضل ، ويصبح حبه وكراهيته للمبدأ الذى كونه ، والمثل العالى الذى ينشده ، والدين الذى يتعلق به ، ويفعل المعروف لا يبغى به ثواباً ولا مديحاً « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً » .

ولا يبالى برضا الناس ، ولا يطيعهم فى معصية الخالق . وفى الحديث الشريف : « من أسخط الله فى رضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه ، ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه ، حتى يزينه ويزين قوله وعمله فى عينه » و « من تحبب إلى الناس بما يحبوه وبارز الله تعالى لقى الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان » ويعدل فى حكمه ولو على نفسه والأقربين إليه ، قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

ويضحى فى سبيل الحق سراً وعلانية ، كما يقول الإمام المراغى : « هذا المؤمن بالله وباليوم الآخر تهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله ، ويهون عليه كل شىء فى الحياة فى سبيل الحق ، وفى سبيل رضا الله وإعلاء كلمته » (٥٦) .

وفى ختام هذه المرحلة يصل المؤمن إلى درجة السمو ، وكمال النفس التى يصورها الإمام على بن أبى طالب : « بقاء فى فناء ، ونعيم فى شقاء ، وعز فى ذل ، وفقر فى غنى ، وصبر فى بلاء » .

وكما يقول ابن مسكويه : « لايزال الإنسان يرقى ويزداد ذكاء وصحة فى الفكر وجودة فى الحكم حتى يبلغ أفق الملائكة ، ويناسبها ويستمد منها ، والإنسان يترقى حتى يبلغ الأفق الأعلى الخاص به » (٥٧) .

وبذلك يستبدل نفسه الأمارة بالسوء نفسا آمنة مطمئنة خاطبها الله تعالى بقوله : « ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

وتندمج نزعاته الموروثة والمكتسبة كلها فى نظام واحد محكم يدور حول الواجب والشعور به ، والحكم على الأشياء والأشخاص فى ضوء هذا الواجب ، والمبادىء الخلقية والدينية التى يتطلبها ، واختيار الطريق السوى الذى يحققها ، بل يصبح هذا الإنسان قطعة من الكرامة والواجب والدين ، تمشى بين الناس دليلا قاطعاً على أن فى استطاعة هذا الحيوان الناطق أن يكون إنساناً عاقلا كاملا .

الباب السادس

المزاج

عرفنا فى البحث السابق كيف تطور سلوك الإنسان من المستوى الغريزى الأولى إلى مستوى العواطف الراقية وكيف ينظم جميع استعداداته الموروثة والمكتسبة فى مجموعة واحدة منسجمة مؤتلفة تدور حول الإحترام واعتبار الذات فيصبح ذا خلق سليم وتتجه كل جهوده ونواحى عقليته، ووجدانه ونشاطه نحو المبدأ الذى ينشده، أو الفكرة السامية التى يسعى لتحقيقها، كل هذا من الناحية العقلية، أو النفسية، ولو كان الإنسان يسير بالعقل وحده، ولا يتأثر إلا بما يدركه، وما يستطيع أن يتحكم فيه بإرادته وتفكيره أو يجعله مركزاً لوجدانه لانتهى البحث عند هذا الحد. ولكن الإنسان عرضة لحالات نفسية كثيرة قد تطرأ عليه فترة ما ثم تزول أو تلازمه مدة طويلة من غير أن يعرف لها سبباً. فتارة يكون منبسطاً، وتارة منقبضاً، أو يغلب عليه الإنقباض فيصبح منقبض المزاج، أو بالعكس يغلب عليه الانبساط والسهولة فى الطبع فيكون منبسط المزاج، أو يكون خمولا بطبعه قليل النشاط، لا يأبه لشىء، أو يكون جم النشاط لا يكل ولا يمل، وما إلى ذلك من شدة أو ضعف وسرعة أو بطء ومرح أو كآبة، وهذه كلها أحوال مردها البدن.

الأمزجة عند القدماء:

وقد لاحظ القدماء من أيام جالينوس هذه الظاهرة فقدروا أن فى البدن أخلاطاً أربعة وهى: الدم والبلغم والمرة الصفراء، والمرة السوداء — لها

أثر مباشر فى توجيه سلوك الإنسان والحالات النفسية والعقلية والوجدانية التى تطرأ عليه ، فإذا تغلبت إحداها جعلت صاحبها ذا مزاج مشابه لها ، فتكون الأمزجة فى رأيهم أربعة وهى: المزاج الدموى والصفراوى والبلغمى والسوداوى ، ووضعوا لصاحب كل مزاج علامات يعرف بها ، ومميزات يتميز بها عن غيره من أصحاب الأمزجة الأخرى .

فيقول الفارابى : « حقيقة المزاج هو تغير الكيفيات الأربع عن حالها ، حكمة البارى تعالى فى الغاية ، لأنه خلق الأصول وأظهر منها الأمزجة المختلفة ، وخص كل مزاج بنوع من الأنواع ، وجعل كل مزاج كان أبعد عن الاعتدال سبب كل نوع كان أبعد عن الكمال (٥٨) .

ورتبوها وفاضلوا بينها وربطوا بينها وبين عناصر الكون ، وهى : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب — أى الأرض — وتكلموا فى ذلك كلاماً طويلا معقداً ، نلخص أهم مافيه فيما يأتى :

« يوجد فى البدن أخلاط أربعة ، وهى : الدم ، والبلغم ، والمرة الصفراء ، والمرة السوداء — أى الدم الفاسد — فالأول مصدره القلب ، والثانى الصدر . والثالث المرارة ، والرابع الكبد ، وهى موجودة فى البطن بالطبع لا بالعرض ، أى إنها مواد أصلية فى الجسم ، وكل منها مناسب فى مزاجه لعنصر من العناصر الأرضية ، وهى : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب ، فالدم مناسب فى مزاجه لمزاج الهواء وهو الحرارة والرطوبة ، ودليل حرارته اسخان بدن الحى ، ودليل رطوبته سهولة تشكله وترطيبه بدن الحى . والبلغم مناسب فى مزاجه لمزاج الماء ، وهى البرودة والرطوبة . ودليله مايشاهد حساً عند خروجه من البدن . والمرة الصفراء مناسبة فى مزاجها لمزاج النار ، وهى الحرارة واليبوسة ودليل ذلك مانراها تفعله فى

جسم الحى من إسخانها الأعضاء الباردة وتيبيسها الأعضاء الرطبة . والمرة السوداء مناسبة فى مزاجها لمزاج الأرض وهى البرودة واليبوسة ، والكل واحد من هذه الأخلاط الأربعة مرتبة ونظام . فالخلط البلغمى فى أول مرتبة ، والدم ثانية ، والمرة الصفراء ثالثة ، والسوداء فى الرتبة الرابعة ، وهذه كلها تختلط وعند اختلاطها يضام بعضها عند تقسيمها أجزاء صغاراً وتفعل كيفيات بعضها فى بعض ، وينفعل بعضها من بعض ، وعلى هذا الوجه يكون منها المزاج .

ولما كانت الأخلاط أربعة ، والأبدان كثيرة الألوان والصفات دل ذلك على أن اختلافها هو من قبل اختلاف مقادير أخلاطها ، فإذا اعتدلت وتكافأت كلها حتى لا يزيد أحدها عن الآخر ولا ينقص كان صاحبها ذا مزاج معتدل ، وإن زاد واحد منها على الآخر فيكون صاحبه دموياً أو بلغمياً أو صفراوياً أو سوداوياً ، وقد يأتلف إثنان إن كانا قابلين للائتلاف ويغلبان الآخرين فيكون مزاج صاحبهما وسطاً بين الإثنين ، فالحرارة واليبوسة يجتمعان معاً ، أما الحرارة والبرودة فلا (٥٩) .

وعلى هذا تكون الأمزجة أربعة أصلية وأربعة فرعية وواحد معتدل أى فى الجملة تسعة ، وقد بلغ من تقديرهم لهذه الأخلاط أن قرر جالينوس بأن النفس ذاتها تابعة لمزاج البدن فتكون عاقلة أو سبعية أو غضبية أو شهوانية وذكروا غير هذا كلاماً كثيراً لا محل للإفاضة فيه .

أخطاء القدماء : وقد رفض المحدثون هذا الرأى بعد أن ظل معمولا به طوال القرون من جالينوس فى الطب والفراسة ، وقالوا بفساده لاعتبارات كثيرة نلخصها فيما يلى :

١ — إن كثيراً من الصفات والمميزات التى نسبوها للأمزجة البدنية

تتبع فى الواقع أموراً نفسية ، أو تتصل بعواطف ، أو تميز أنواع الشخصية فالتفاؤل والمرح الذين وصفوا بهما صاحب المزاج الدموى هما من صفات الشخصية المنبسطة أو الممتدة .

٢ — إن الأعضاء التى نسبوا لها الأخلاق ليست هى وحدها المسيطرة على البدن بل هى فى الواقع فى الرتبة الثانية بالنسبة للغدد والجهاز العصبى وأن الأخلاط ليست هى وحدها أهم إفرازات البدن التى تؤثر على سائر الأعضاء فهناك ماهو أقوى منها أثراً وأشد فعلا ، بل وفيها هى نفسها ، ففى البدن جهاز عصبى دقيق الصنع يسيطر على سائر الأعضاء ويقوم بالمعقد من الأعمال . يلبى آلاف المؤثرات الخارجية والداخلية ويؤثر أثراً مباشراً فى الإدراك والوجدان والنزوع ، فإن انتظم انتظمت الأعمال واعتدل المزاج ، وإن اختل اختلت الأعمال وفسد المزاج ، وفيه غدد لها إفرازات تؤثر على الجهاز العصبى ذاته أثراً ظاهراً بارزاً فى سلوك الإنسان كتأثير المخدرات والمنبهات . فالغدة الدرقية الموجودة بالعنق إذا نقص إفرازها عن الحد الطبيعى أصبح الشخص بطيئاً متلكئاً فى كل تصرفاته بليداً فى ذهنه وإن كان طفلا تناقص نموه العقلى والبدنى وإذا لم يعالج يظل طول عمره أبلهاً ناقص العقل ، أما إذا زاد الإفراز فى الدم ازداد نشاط الإنسان زيادة تجعل الشخص قلقاً مضطرباً سريع التهيج ، والغدة النخامية فى أسفل المخ إذا ازداد إفرازها عند الشباب أصبح عملاقاً وإذا نقص صار قزماً ، والغدة فوق الكليتين لها أثر مباشر فى الانفعالات والحالات الوجدانية ، وتهيج الكبد فيدفع بالسكر إلى الدم فيزداد الاحتراق ، ومن ثم النشاط والتهيج العام والقدرة على الاستمرار فى العمل وهى كذلك تنشط القلب والرئتين ، وقد ينحدر الإنسان فى حالة زيادة إفراز الدرقية إلى الجنون

أو فى حالة النقص للعته .

٣ — وبعض الأمراض الطارئة لها أثر كبير على المزاج ، فالسل عادة يجعل صاحبه متفائلا ، والسكر متبرماً قلقاً .

٤ — وهناك عوامل أخرى هامة تؤثر فى المزاج كالتعب . فالناس يختلفون اختلافاً كبيراً من حيث قابليتهم للتعب ومقاومتهم له والاستمرار فى العمل مع وجوده ، فقد يبدأ شخصان عملهما فى وقت واحد وهما فى غاية النشاط فتظهر أعراض التعب على أحدهما بعد فترة وجيزة فينحط إنتاجه وتكثر أخطاؤه ، وينقبض ويرتبك فى حين يستمر الآخر مدة طويلة وهو منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، أو يشعر أحدهما بالتعب قبل أن يحل به ولا يشعر به الآخر إلا بعد أن يحل ويتملكه .

٥ — فالمزاج إذاً ليس مجرد نتيجة تغلب واحد من الأخلاط وإنما هو مظاهر السلوك والحالات النفسية الناتجة من مجموع الآثار الكيميائية للتفاعلات والعمليات الحيوية التى تحدث فى البدن فتؤثر على المخ والأعصاب .

وهو إذن نتيجة عوامل طبيعية موروثة ، أو بدنية طارئة كأمراض الغدد ليس للارادة عليها سبيل أو سلطان ، وبهذا يختلف عن العواطف والشخصية والخلق التى هى استعدادات أو مميزات مكتسبة ، وإن كانت الظروف الطارئة من الصحة والمرض ، وأسلوب المعيشة والجو والمناخ والتغذية كلها لها أثرها المباشر على المزاج .

آراء المحدثين : لم يقتنع المحدثون إذن بالمذهب القديم ولكنهم لم يصلوا إلى أحدث الآراء طفرة وإنما فى خطوات تناولت كل منهما سابقتها بشىء من التعديل حتى انتهوا إليه وما كشفه لهم العلم الحديث عن خواص الغدد

والجهاز العصبي .

وكان أول مافعلوه أن تناولوا مظاهر سلوك الإنسان وحالاته النفسية من ناحية القوة والضعف ، أو النشاط والخمول ، ثم السرعة والبطء تمثلا بحركة القلب والنبض ، فوجدوا أن المزاج الدموى يجتمع بين القوة والبطء فيكون صاحبه قوياً نشيطاً له قدرة على الاستمرار فى العمل وتدبر الأمور ، وإنما فى هوادة ولين ، فينفعل مثلا انفعالا شديداً ولكنه لا يتصرف بسرعة ولا يثور ، وصاحب المزاج الصفراوى قوى وسريع فعنده نشاط الأول وجلده ولكنه سريع أهوج لا يتدبر ولا يتروى ، والسوداوى ضعيف وسريع ، فيعمل عمله مثلا بسرعة ولكنه يمله كذلك بسرعة ويتعب ، أو يكون سريع الغضب ولكنه لا يقوى على مقاتلة من أغضبه ، أما البلغمى فضعيف وبطىء (٦٠) .

٢ — ولكن هذا التقسيم أيضاً يغفل الناحية الوجدانية ، وعلى هذا قد يجمع المزاج الواحد على التقسيم القديم بين ناحيتين وجدانيتين أو شخصيتين متناقضتين مادام أساس التقسيم هو النشاط ، فالشخصيتان المتفائلة والمتشائمة مثلا يدخلان فى المزاج الدموى وهذا غير معقول .

فيجب أن يجمع التقسيم بين النشاط وله ناحيتان : الإيجابية والسلبية ، أو القوة والضعف ، والناحية الوجدانية ولها ثلاث حالات : الارتياح أو السرور ، وعدم الارتياح ، والحالة الوسطى ، وينتج من هذا التقسيم ستة أنواع من الأمزجة (٦١) .

المزاج الدموى : يكون صاحبه قوياً وشاعراً بالارتياح .

« الصفراوى : يكون صاحبه قوياً وشاعراً بعدم الارتياح .

« الزئبقى : يكون صاحبه قوياً ولكن حالته الوجدانية وسطى .

المزاج الضحوك : يكون صاحبه ضعيفاً وشاعراً بالارتياح .
« السوداوى : يكون صاحبه ضعيفاً وشاعراً بعدم الارتياح .
« البلغمى : يكون صاحبه ضعيفاً وحالته الوجدانية وسطى .

ومن صفات (الأول) الائتناس بالغير ، وطيبة النفس ، والتودد والإخلاص .
« (الثانى) الخجل ، ودقة الإحساس ، وسرعة التهيج العصبى .
« (الثالث) الهدوء والبساطة والقناعة مع سرعة التألم والانقباض
« (الرابع) المرح ، وحب النكتة ، والدعابة ، والتسرع .
« (الخامس) الهرب من الجماعة والهدوء والتحفظ والوقار والشذوذ
« (السادس) المرونة ، والطيبة ، والأمانة ، وعدم التأثر ، وبلادة الذهن .

٣ — ويرى فريق آخر من العلماء أن الغرائز باعتبارها مصادر السلوك الإنسانى وأقوى الدوافع لها بالضرورة أثر مباشر فى تكوين المزاج فإذا تطرفت غريزة من الغرائز وقويت على حساب الغرائز الأخرى ، أو كان من طبيعة الظروف المحيطة بالإنسان أن تثار فيه غريزة ما استثارة متكررة مستمرة ، فإنها تكسبه مزاجاً خاصاً مصطبغاً بهذه الغريزة (١٠٧) .

فالخوف مثلا إذا ازداد وتكررت المواقف التى تثيره فى حياة الإنسان جعلته جباناً ، وغريزة المقاتلة بالمثل تجعل الإنسان مشاكساً معتدياً وغريزة التسلط تدفعه إلى التعاظم والتسامى ، والخضوع الى المسالمة والاستكانة ، والغريزة الوالدية أو الحنو إلى الإيثار ، والتملك إلى البخل والناس يشتركون فى جميع الغرائز كيفاً ، ويختلفون كماً ومقداراً ، ومن ثم يختلفون مزاجاً . وقد يقوى فى الإنسان غريزتان أو أكثر فيصبح ذا مزاج مركب من

مظاهر هاتين الغريزتين أو الغرائز . فالاعتداء والاضطهاد والاستبداد ينتج من غريزتى السيطرة والمقاتلة . وكثيراً مايحدث أن يشعر الإنسان بدافع غريزى يتملكه ولا سلطان له عليه ويخشى أن يكشفه هذا الدافع للناس فى ثوب لايرضاه فيظهر بثوب آخر هو من نسيج الغريزة ذاتها ولكن فى لون آخر مقبول ، أو يكون مظهره مناقضاً لحقيقة مايشعر به تماماً . فقد تكون الإثرة والاستبداد تعويضاً عن شعور بالنقص والخضوع ، وهكذا تؤدى الغريزة إن تسلطت وقويت إلى مزاج من طبيعتها ، أو مزاج آخر مناقض لها يقوم بعملية التعويض (٦٢) .

فغريزة الهرب تكسب الإنسان مزاج الجبن أو التهور ، والاستطلاع يؤدى للمناداة بالتجديد والتطرف أو المحافظة على التقاليد ، والمقاتلة إلى الفتح والحروب والاعتداء أو المسالمة ، والتجمع إلى الإندماج فى الجماعة أو الخروج عليها ، وبالمثل تنتج الإثرة من قوة غريزة السيطرة المباشرة أو تكون تعويضاً عن غريزة الخضوع ، والشجاعة تنتج من المقاتلة والتسلط أو تكون رد فعل مباشر للخوف ، والمسالمة والدعوة للسلام من الخوف أو من قمع غريزة المقاتلة . ويتميز المزاج الناتج عن التعويض وإخفاء ما يناقضه عن المزاج الناتج عن الدافع الغريزى ذاته ، بأن الأول يكون دائما متطرفاً . فالشجاعة الناتجة عن تعويض الخوف تكون دائماً تهوراً واندفاعاً والإثرة الناتجة عن تعويض الشعور بالنقص تتطرف إلى جنون العظمة والمسالمة الناتجة عن تعويض المقاتلة هى مسالمة مسلحة ، أو دعوة لقمع الحرب بالحرب ، ومنع التسليح بالتسليح .

٤ — وأخيراً كشف العلم الحديث عن أثر إفرازات الغدد التى ذكرناها من قبل ووضع العلماء تقاسيم جديدة للأمزجة على أساس هذه الغدد ولكن

البحث لم يكتمل بعد ، وأثرها أكثر ظهوراً فى الأمزجة الشاذة المتطرفة ولذلك سنتحدث عن هذا فى مبحث الشذوذ .

أثر المـــزاج :

وليس من شك فى أن للمزاج أثراً كبيراً فى نواحى حياة الإنسان الوجدانية والنزوعية ، وقـــد يطغى هذا الأثر على العواطف والخلق والشخصية فيضعفها أو يقويها ، أو ينحرف بها عن طريقها ، فيزور المحب عن حبيبه وهو منقبض ، وقد يعدل عن أخذ الثأر من عدوه إن كان منبسطاً ، وقد يقعد به خموله عن تحقيق أمور هو راغب فيها ، أو يدفعه نشاطه الزائد إلى التهور وهو يريد إلا أن يكون معتدلا محترماً لذاته ، وقد يسيطر الإنسان على عواطفه وخلقه ويكيفها إلى حد كبير ما دامت مكتسبة فى حين أنه لا يستطيع أن يسيطر على مزاجه مادامت عوامله التى يتكون منها كلها طبيعية أو بدنية أو موروثة .

والمزاج هو أصل الكثير من الفوارق العقلية والنفسية الظاهرة بين الأفراد والشعوب والجماعات والعوامل الهامة التى تكون الخلق والسلوك ، فصاحب المزاج السوداوى أو البلغمى لا يمكن أن يقوم بعمل جليل ، وصاحب المزاج الضحوك لا يمكن أن يستمر فى عمل مرهق أو يصمد لنكبات الزمان ، وفيه قال الرسول : « ويل للذى يحدث بكذب ليضحك به القوم ، ويل له ، ويل له » وصاحب المزاج الصفراوى لا يمكن أن يتسامح أو يصفح عن المسيء ، والمزاج الزئبقى لا يثبت على رأى . وكذلك الأمم المتفوقة المستعمرة يغلب فيها المزاج الدموى ، والأمم التى تشتهر بالفنون المزاج الصفراوى ، والشعوب المستهترة يغلب فيها المزاج الضحوك ، والأمم السوداء يكثر فيها المزاج البلغمى (٦٣) .

الباب السابع

الشخصية

تعريف الشخصية :

تتدخل فى تكوين سلوك الإنسان وخلقه ومن ثم شخصيته عوامل كثيرة منها ذكرنا منها نشأته وبيئته وأثرها فى غرائزه وانفعالاته وعواطفه ثم مزاجه وعقليته . ولما كانت ظروف الناس مختلفة واستعداداتهم الطبيعية متباينة — كماً وقوة وإن اتفقت كيفاً ونوعاً — لزم أن يكون للناس شخصيات متعددة بتعدد هذه العوامل ، فقد يتميز واحد من الناس بناحية خاصة تطبع أعماله وتصرفاته ومعظم أنواع سلوكه ومعاملاته مع الناس بطابع خاص يصبح ميزة له تعرف فيه أو صفة يوصف بها ، فى حين يتميز شخص آخر من ناحية ثانية فيوصف وصفاً آخر . وقد يتغلب عامل من العوامل أو نوع من أنواع الاستعدادات على الأنواع الأخرى ويطغى عليها بحيث إذا أردنا أن نصف صاحبه أو نصوره أو نتمثله تحدثنا عن هذه الناحية وحدها ولم نذكر شيئاً عن النواحى الأخرى كأن لاوجود لها . فنقول عن فلان : إنه جبار العقلية ، أو واسع الاطلاع ، أو مستبد برأيه ، أو بطىء التفكير ، أو سريع التقلب فى الرأى ، أو حاضر البديهة ، وما إلى ذلك من الصفات التى تدل على نوع خاص من العقليات . ونتكلم عن فلان من الناحية الوجدانية فنصفه بأنه أنانى محب لذاته ، أو سريع الغضب ، أو شديد الإخلاص لأصدقائه ، أو متيم فى حبه ، أو محب لعائلته ، أو متعصب لدينه ومبدئه . وهذه كلها صور لأشخاص تغلب فيهم الناحية الوجدانية .

أو نتناول خلقه فنقول عنه : قويم الخلق ، أو متساهل فى عاداته ، أو لاخلاق له . أو عن طبعه ومزاجه فنقول : إنه حاد الطبع ، أو عصبى المزاج ، أو كثير المرح . وقد يصور لنا الكاتب أو الأديب أو الشاعر أو المصور والمثال شخصاً ما فى صورة تبرز الناحية التى استهوته فى طبيعته وتكوينه بجسمة حية واضحة بحيث يصبح هذا الشخص فى نظرنا رمزاً أو أنموذجاً لنوع خاص من أنواع الشخصيات ، يمثل شخصية الشاعر أو المحسن أو الزاهد أو رجل الأعمال أو الفيلسوف .

ولكن جميع هذه الصفات والصور إن عبرت عن ناحية أو بعض نواح من تكوين الإنسان فإنها تقصر عن أن تعطينا صورة كاملة صحيحة لنواحى الشخص الذى نتحدث عنه وأسباب سلوكه واستعداداته كما يعرفها أصدقاؤه الذين خالطوه فى مختلف ظروفه ولمسوا فيه كل نواحيه ، وعرفوا منه ومن أموره وتصرفاته مالا يعرفه الأشخاص الذين خالطوه عرضاً وتأثروا بناحية خاصة فيه . فالكلام عن عقلية الإنسان يعطينا جزءاً واحداً بسيطاً من صورته العامة ، والكلام من مزاجه يعطينا جزءاً آخر ، والاقتصار على جزء واحد لا يمكن أن يمثل لنا الصورة العامة التى هى شخصيته الحقة ، وإن كانت كل هذه النواحى متداخلة فى بعضها وكل منها يؤثر فى الآخر فشخصية الإنسان ليست مجرد عقليته أو مزاجه أو خلقه أو عواطفه أو ناحية خاصة من نواحى تكوينه ، أو ميزة بارزة يتميز بها عن غيره من الناس وإنما هى وحدة حية مركبة من كل هذه النواحى ونتيجة لتداخلها وتفاعلها ، وبعبارة أخرى هى محصلة لعدة قوى ، وبقدر ما تكون عليه هذه القوى من قوة أو ضعف تكون الشخصية فى مجموعها قوية أو ضعيفة .

وبالمثل إذا اتزنت هذه العوامل أنتجت شخصية متزنة معتدلة فى معظم

نواحيها وإذا انحرفت عن طريقها الطبيعى أدت إلى شخصية منحرفة أو شاذة ، فصاحب الشخصية القوية الجبارة أو البارزة يكون متفوقاً فى ذكائه وعقليته موفور النشاط ذا جلد على العمل ، موجهاً وجدانه ونزوعه للأمور الجدية أو بعبارة أخرى ذا شخصية متفوقة متسلطة على وجه العموم ، وصاحب الشخصية المرحة ينظر إلى الحياة ويقلبها من ناحيتها المرحة ، فيفكر فى الأمور البهيجة ويستطيب النكتة ويصطنعها ، وينظر إلى الحاضر والمستقبل نظرة المستبشر المتفائل ويحب الأمور السلمية الهادئة ، ويتذوق طعم الفن والجمال وكل مايدخل السرور على قلبه . أما الممثل الكوميدى فلا يصح أن يحكم عليه بأنه ذو شخصية مرحة لمجرد ظهوره أمام الناس بحكم دوره أو مهنته بمظهر المرح والسرور ، فقد يكون فى حياته الخاصة بائساً ساخطاً على الدنيا والناس متبرماً بالحياة .

عوامل الشخصية : والعوامل التى تؤثر فى حياة الإنسان وتعمل على تكوين شخصيته متعددة ، منها ماهو ثابت أصيل كالغرائز والذكاء ، ومنها ماهو مكتسب كالعواطف ولكنها مع هذا نستطيع أن نردها إلى سبعة أصول رئيسية ، وهى : العقلية ، والوجدان ، والمزاج ، والخلق ، والبدن ، والمهنة ، والبيئة (٦٤) .

١ — العقلية : تقوم عقلية الإنسان على أساسين ، وهما : الذكاء ، أو القدرة على التصرف فى المشاكل والمواقف الجديدة بأقصر الطرق وأقل الجهود ، (٦٥) .

ثم العمليات العقلية التى تساعد الإنسان على اكتساب الخبرة والمعلومات من ربط وتذكر وإدراك وتفكير وتخيل ، وهذه كلها استعدادات يرثها الشخص أو عمليات يظهر معظمها فى الطفولة ثم تنمو

وتتدرج ، ولكن مجرد وجودها وطبيعتها لا يضمن نموها على النحو المنتج المفيد ، فلا بد لإظهارها والانتفاع منها من التعليم المنظم ، سواء أكان الغرض منه إتقان حرفة أو صناعة فى الحقل أو المصنع أو السوق ، أو كسب المعلومات وتحصيل العلوم فى المدرسة أو المعهد ، فالتعليم وحده يكشف هذه الاستعدادات وينميها ويسير بها فى طريق صالح منتج ويظهر أثرها فى تكوين شخصية الإنسان ، فهناك أميون كثيرون لديهم ذكاء طبعى موفور لا ينتفعون منه مادامت الظروف الصالحة لا تهيأ لهم ، على أن التعليم وحده لا يكفى لتكوين شخصية عامة قوية إلا إذا كمل بالتثقيف فقد يتعلم الإنسان العلوم المدرسية ويتدرج فى مراحل التعليم حتى يصل فيه إلى أرقى الدرجات ويصبح أستاذاً أو إخصائياً فى علم أو فن ويكون مع هذا كله بعيداً كل البعد عن الحياة ذاتها ناقص التكوين بحيث يحسبه الناس رجلا عادياً ، فهناك أنواع من المعلومات العامة والفنون ليس للمدرسة نصيب فى تكوينها ولا يصل إليها الإنسان بغير الاطلاع الواسع والخبرة والاحتكاك بالناس وليست علوم المدرسة غاية فى ذاتها فإذا انتهى الإنسان فى تحصيلها كان مثقفاً وإنما هى وسائل لتنظيم الفكر ومفتاح لباب الحياة ، حتى قيل أن الإنسان ليبدأ يتعلم العلم الصحيح بعد أن ينتهى منه فى المدرسة ، فطالب الأزهر مثلا المتخصص فى العلوم الدينية لا يسميه الناس مثقفاً إلا إذا ألم بطرف من الأدب والفن واتصل بأمور الحياة العامة وعرف ما يجرى فى العالم من الأحداث الهامة الخارجة عن دائرة الدين وعلومه وعرف لغة أخرى غير لغته وتتبع النهضة العلمية الحديثة وتيار الفكر الغربى والشرقى بعض الشىء. على مثال ما يرمى إليه الأزهر الآن فى عهد الإصلاح الحاضر ، وقد تنمو القوى كل فى طريقها مستقلة عن غيرها لا يربطها رابط وينتهى

الأمر بالإنسان أن تصبح معلوماته نتفاً غير منظمة ولا منتجة ويصبح العقل مخزناً كبيراً به غرف غير متصلة إذا دخل الإنسان غرفة الأدب فيه نسى العلوم ، فى حين أن الإنسان إذا ربط معلومات المادة الواحدة بعضها بالبعض الآخر ثم ربط هذه المادة بما يتصل بها من مواد فى مجموعة خاصة — كأن يربط التاريخ بالجغرافية والسياسة والمعلومات المدنية — وتكونت فى ذهنه مجموعات منتظمة واحدة للعلوم الفلسفية وأخرى الدينية وثالثة للعلمية وأخيراً يربط هذه المجموعات كلها بعضها ببعض فتصبح مجموعة واحدة كبرى أو دولة علمية يشد بعضها أزر بعض ويستفيد كل نوع فيها من باقى الفروع بحيث إذا تكلم الإنسان فى الدين عرج على الفلسفة والمنطق واستعان بالتاريخ للاستقصاء والمقابلة والعلوم للبحث والتمحيص وأصبحت معلوماته كلها تدور حول محور واحد يتدرج منه إلى الغرض الأسمى من التعليم والتثقيف وهو دراسة طرق التفكير الصحيحة ومناهج البحث ومعالجة الأمور والنظر فيها نظراً سديداً وكسب العادات العقلية المنظمة ، وبذلك تصح عقليته أداة عامة مفيدة توجه نزعاته وعواطفه وميوله نحو الأغراض السامية التى يسعى لتحقيقها فى الحياة ، وهذا هو الطريق الذى سلكه السلف الصالح من الأئمة والمجتهدين والفلاسفة والعلماء وبعض البارزين من أئمة هذا العصر ، فقد حرصوا على أن يتناولوا كل ما كان لديهم وقتئذ من علوم وفنون وأقبلوا يدرسونها ويمحصونها ويستوعبونها وكتبوا فيها الرسائل وصنفوا فيها الكتب وكانت لهم أكبر عون على التفسير والتفقه فى الدين والله تعالى يقول : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) والعلم أساس التقوى ، فهى كما يقول الإمام المراغى : « تشمل إقصاء الذنوب واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال والسعادة حسبما

ترشد إليه السنن الكونية وذلك يتوقف على علم سنن الله فى الإنسان منفرداً ومجتمعاً ، وعلى معرفة ماينبغى أن يفعل وينبغى أن يترك (١٠٨) .

وإذا كان الزمن قد تغير وأصبح من المستحيل على الإنسان مهما امتد أجله واتسع عقله أن يلم بما فى العالم الآن من علوم وفنون ، بل أصبح لزاماً أن يتخصص العالم فى فرع واحد من المادة أو يقضى طول عمره فى استقصاء جزء واحد من هذا الفرع فلا أقل من أن يتخير كل صاحب مهنة أو صناعة مايتصل بها من علوم وفنون فيدرسها دراسة مستفيضة ثم يلم بطرف بسيط ولو بالنتائج العامة دون التفاصيل فى العلوم الأخرى أو الفنون أو المعلومات العامة التى لاغنى للرجل المثقف عن الإلمام بها وإلا عاش الرجل غريباً بين الناس لايشاركهم حديثاً وموضوعاً ، أو يدلى برأى فى شىء غير ماتخصص فيه ، أو يظل يترقب الفرصة فى المجتمعات حتى تظهر مناسبة يظهر منها مايعلمه وقد لاتحين

فالعلم يمثل العمق فى الدرس والتحصيل ، والثقافة تمثل سعة الاطلاع ، وقد اتجهت أنظمة التربية الحديثة إلى التثقيف العام أكثر منها إلى التعمق فى طائفة قليلة من العلوم المدرسية ، لأن الثقافة تبنى الشخصية وتظهرها فى المجتمع العام ، ولعل هذا العصر يمتاز أكثر من سواه بنزعته لتبسيط العلم وتعميمه وجعله فى متناول كل إنسان وإخراج طائفة منوعة من الموسوعات وكتب المعلومات العامة التى يجب أن يطالعها كل إنسان ، واصطناع كافة الوسائل لنشر الثقافة ، من صحافة وخيالة ومسرح ومتاحف ومعارض ورحلات . وقد عنى العلماء فى الغرب بدراسة نواحى المعلومات العامة التى يجب أن يلم كل إنسان بطرف منها ، ووضعوا فى ضوء هذه الدراسة مقاييس يستطيع أن يعرف الإنسان منه نسبة ثقافته العامة إلى ما يجب

أن يكون (١٠٩).

وقد وضعت المقياس التالى مناسباً للمصريين (١١٠).

ومقياساً آخر مناسباً للعراقيين (١١١).

نجد فيما يلى جملا ناقصة، وبجوار كل جملة أربع كلمات منفردة واحدة فقط منها هى التى تكمل هذه الجملة. فعليك أن تقرأ كل جملة على حدة. مبتدئاً من رقم (١) وتضع خطاً تحت الكلمة التى ترى أنها تكمل المعنى، كما فى المثال الآتى:

الناس تنظر ب: الأعين، الآذان، الأنف، الفم.

والآن أبدأ

١ — مدينة القاهرة بناها: رمسيس. عمرو بن العاص. جوهر الصقلى. محمد على باشا.

٢ — نلعب الشطرنج ب: المضارب. الورق. قطع الخشب. النرد.

٣ — المحلة الكبرى مشهورة: بالسيارات. السجاد. المنسوجات. العاج

٤ — الدندراوى نوع من: الخيل. الدجاج الماشية. الجرانيت.

٥ — تصنع الفخار شركة: الدفراوى سرناجه. سباتس. الحوامدية.

٦ — توجد المدرسة البحرية: بالقاهرة. الاسكندرية. بور سعيد. دمياط.

٧ — الكسار: ممثل. مؤلف. لاعب كرة. مغنى.

٨ — البشاروش نوع من: الخيل. الماعز. الغنم. الطيور.

٩ — هدى شعراوى : زعيمة نسوية . مغنية . ممثلة . مؤلفة .
١٠ — الخرشوف نوع من : الثعابين . السمك . السحالى . الخضر .
١١ — يوجد المرجان فى : المناجم . الفيلة . الصخور . البحار .
١٢ — مختار : شاعر . مصور . موسيقى . مثال .
١٣ — الحرباء نوع من : الزواحف . السمك . الطيور . الحشرات .
١٤ — لون الزمرد : أحمر . أزرق . أخضر . أصفر .
١٥ — يصنع الفريك من : القمح . الدريس . القرطم . الرز .
١٦ — سانلايت : دواء مجهز . سائل مطهر . صابون : مسحوق أسنان .
١٧ — يعلن دائماً بصورة فارس عربى عن : مشروب . سجاير . ملابس . دواء .
١٨ — الزنزلخت : آلة . طعام . شجرة . قماش .
١٩ — بمباى فى : الصين . الفرس . الهند . اليابان .
٢٠ — الجشتنر : آلة كتابة . آلة حاسبة . آلة طباعة . راديو .
٢١ — يوجد البنكرياس فى : الرأس . البطن . الكتف . الرقبة .
٢٢ — الشفيوت اسم : نسيج . مشروب . دواء . طعام .
٢٣ — التبديد اصطلاح : طبى . دينى . قانونى . بيداجوجى .
٢٤ — تاريخ معركة التل الكبير : ١٨١٣ ، ١٨٥٣ ، ١٨٨٢ ، ١٨١٢
٢٥ — تستعمل الطنبورة فى : الموسيقى . الاختزال . التجليد . الطباعة :
٢٦ — تستخرج التربنتينا من : البترول . المناجم . الجلود . الأشجار .
٢٧ — أقدام الزولو : إثنان . أربعة . ستة . ثمانية .
٢٨ — البرونتج : بندقية . مدفع . مسدس . سيف .
٢٩ — مؤلف كتاب الأيام : المنفلوطى . أحمد أمين . طه حسين . هيكل .

٣٠ — دبوس اصطلاح فى : كرة السلة . كرة القدم . التنس . الهوكى .
٣١ — الأمبير يقيس : الريح . الكهرباء . قوة الماء . سقوط المطر .
٣٢ — هليو تروب اسم : مشروب . لون . نسيج ، طعام .
٣٣ — البازلت : نبات . معدنى . حجر . سائل .
٣٤ — قيس شخصية فى رواية : عطيل . عائدة . مجنون ليلى . هملت .
٣٥ — القصابية تستعمل فى : صيد السمك . صيد الطيور . الزراعة . السيارات .
٣٦ — سيارة فورد تصنع فى : ألمانيا . فرنسا ، بلجيكا . أمريكا .
٣٧ — انشتاين عالم فى : الكيمياء . الرياضة . الجغرافيا . الجيولوجيا .
٣٨ — من حلفاء ألمانيا فى الحرب الماضية : اليابان . بلغاريا . هولندا . الأرجنتين .
٣٩ — مطار ألماظه يقع فى : السويس . حلوان . مصر الجديدة . الدخيله
٤٠ — مترنيخ كان : ألمانياً . إنجليزياً . فرنسياً . نمساوياً .

الإجابات الصحيحة هى : جوهر ، قطع الخشب ، المنسوجات ، الدجاج ، سرناجه ، الإسكندرية ، ممثل ، الطيور ، زعيمة نسوية ، الخضر ، البحار ، مثال ، الزواحف ، أخضر ، القمح ، صابون ، سجاير ، شجرة ، الهند ، آلة طباعة ، البطن ، نسيج ، قانونى ، ١٨٨٢ . الموسيقى ، الأشجار ، اثنان ، المسدس ، طه حسين ، التنس الكهرباء ، لون ، حجر ، مجنون ليلى ، الزراعة ، أمريكا ، الرياضة ، بلغاريا ، مصر الجديدة . نمساوياً .

اضرب عدد الإجابات الصحيحة فى ٢ ١/٢ يكون الناتج النسبة المئوية لثقافات العامة .

ودرجة الثقافة هى من ١٠٠ — ٧٦ مثقف جداً و ٧٥ — ٥٩ فوق المتوسط و ٥٨ — ٤٢ متوسط أو عادى و ٤١ — ٢٥ دون المتوسط و ٢٤ إلى صفر غير مثقف .

ويستطيع الإنسان أن يعرف نواحى النقص فى ثقافته فيكملها ، من دراسة الأنواع التى أخطأ فى الإجابة عنها أو أهملها .

وليس معنى الثقافة أن يتشدق أمام الناس ببعض كلمات أو جمل بلغة أجنبية ليوهم الناس أنه عالم بها ، أو يردد بعض نظريات العلم الحديثة . أو يسرد أسماء دون أن يفهم مايقول ليوهم الناس أنه متتبع لأحدث مايجد فى العلم ، فإن هذا يكشف جهله ويظهر شخصيته ضحلة سطحية لاعمق فيها ولا دسم .

أو يجادل فى أمر عديم الجدوى ، أو يناقش مناقشة بيزنطية (١١٤).

ويشير المراغى إلى هذا فى موضوع الجدل فى القبلة فيقول : « مثل هذا ليس له شأن العقلاء ، لأنه جدل خارج عن دائرة البر والخير ، إذ لاتفاضل فى الأمكنة » (١١٣) .

والله أعلم وفوق كل ذى علم عليم .

(٢) الوجدان : وقد بينا كيف ينظم الإنسان انفعالاته فى عواطف ثم ينظم عواطفه كلها حول عاطفة واحدة حتى يجعل من استعداداته الوجدانية كلها قوة واحدة فعالة ، وبغير هذا التنظيم لايمكن أن يكون الإنسان ذا عاطفة قوية أو مبدأ ثابت أو خلق قويم ، فالعاطفة الواحدة هى فى ذاتها قوة لايستهان بها ولكنها إذا تسلطت على العواطف الأخرى أخضعت الإنسان لسلطانها ، وقد يتنكب السبل وراء إشباعها حتى ليخرج على كل الاعتبارات والقواعد المرعية والتقاليد ، وقد يعمد إلى الغش

والخداع وربما يرتكب الجرائم ولا يكون ذلك فى نظره رذيلة مادامت الغاية التى يسعى إليها فى نظره مقبولة .

فقد يقتل الإنسان ويسرق ليعول أولاده ، أو يغش فى الامتحان ليحصل على الجائزة ، والذى يستبد به حبه لذاته تتملكه رغبة ملحة فى التماس الشهرة والوصول إلى المركز الكبير من غير أن يدرك بالتحديد الغرض السامى الذى يمكنه هذا المركز من تحقيقه لمصلحته ومصلحة المجتمع ، فيختط لنفسه طريقاً فى الحياة يرى أنه كفيل بإشباع شهوته ، ويتمسك بأهداب كل مايوصله لغايته ، وينتهز الظروف بالخير والشر ، ويقدر قيم الأشياء والناس والمواقف سلباً أو إيجاباً بقدر اتصالها بهذه الرغبة . وقد يظهر بمظهر الشخصية البارزة والخلق الجبار بحكم مايصل إليه من مركز ولكنه مع هذا بعيد كل البعد عن الشخصية المحترمة القوية ، فهو لايتورع ولا يرحم ولا يشفق على منافسيه الضعفاء أو المتمسكين بكرامتهم ويتخطى كل مايعوقه بقسوة ، ويتمسح بالعظماء ويريق دماء وجهه ، ويتملق من فى يده مفتاح رقيه (٦٦) .

وبعض الشعوب تتشدق بالعدالة وحب السلام وتكون كذلك بالفعل فى بلادها ويتخذها أفرادها مبدأ لايحيدون عنه فى معاملتهم مع بنى جنسهم ولكنهم ينسون كل هذا إذا ما اعتدوا على أمة أخرى أو تعاملوا مع الأجانب . أما إذا ارتبطت العواطف والتقت مع عاطفة اعتبار الذات فإن حياتهم الوجدانية تسير فى الطريق السوى نحو الكمال ، فعاطفة اعتبار الذات هى وحدها الضمان للوصول للخلق القويم والشخصية البارزة المحترمة ، وكل عاطفة لاتتصل بها يضل صاحبها الطريق ، فالقاضى مثلا قد يكون فى نفسه عاطفة حب العدالة فتجده عادلا فى كل أحكامه مادامت

القضايا خاصة بأشخاص ليس له فى العدل بينهم مصلحة خاصة ولكنه قد يظلم من يتعامل معه ظلماً بيناً وينسى أنه قاضى ، أما إن ارتبط حب العدالة عنده بعاطفة اعتبار الذات فإنه لا يظلم مهما كانت الظروف ويعدل للناس جميعاً فى القضايا التى يفصل فيها فى محكمته وفى معاملاته الخاصة ، وقد يفضل أن يظلم نفسه عند الشك ولا يظلم الغير ، فإذا ظلم مرة ولو عن غير قصد لازمه الندم وتوبيخ الضمير (٦٧) .

وقد يكون الإنسان فى نفسه عدة عواطف كحب البحث العلمى والتدين وحب الأسرة ، وتكون كل من هذه العواطف قوية فى ذاتها ولكنها تعمل مستقلة بحيث إذا شغله البحث العلمى نسى فروض الدين ومصالح العائلة ، فإذا عاد إلى بيته نسى البحوث العلمية ولم يشغله إلا حبه لعائلته ، أو يكون متديناً وقت قيامه بالفروض ثم يدين ببعض نظرات علمية تخالف الدين ، وقد يقيم بين العواطف سداً منيعاً فلا يستعين بالعلم على فهم الدين ولا يقحم الدين فى العلم ، فكأنه عالم فى ظرف ومتدين فى ظرف آخر ، ورب عائلة فى ظرف ثالث كأنه ثلاث شخصيات فى شخص واحد .

(٣) المزاج : أما المزاج فلا حيلة للإنسان فيه ما دام مصدره الغدد والجهاز العصبى والغرائز التى لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيها بسهولة وإن كان فى استطاعة الإنسان الآن أن يعالج غدده وأعصابه ، وأن يعدل من سلوكه الغريزى بالإبدال والإعلاء وبشىء من الإرادة القوية وبالمرونة ، والصبر ورياضة النفس وتبديل وجهة النظر للحياة يستطيع أن يغير من مزاجه بعض الشىء فيقل تشاؤمه وانقباضه مثلا إن لم يستطع أن يصبح متفائلا (٦٨) .

(٤) الخلق : وبينا أيضاً أن الإنسان لا يصل إلى الخلق القويم

والإرادة الكاملة التى هى عماد الشخصية القوية إلا إذا جعل حياته الوجدانية كلها بعد تنظيمها تدور حول فكرة سامية أو مثل عال ينشده ، وبذلك لاتتعارض رغباته وتتنافر أغراضه ولا يوزع النشاط الحيوى بينها فيضيع سدى فى هذا الصراع .

(٥) البدن : أما عاهات البدن وأعضاؤه وما يزينها أو يشينها فأثرها واضح جداً فى تكوين شخصية الإنسان وأنواع سلوكه ، ونظرته للحياة ومعاملاته للناس ، وكم من العلماء والأدباء والفلاسفة والقواد ثاروا على العالم والمجتمع ، وسخطوا على الزمان وتبرموا بالحياة ، ونادوا بالثورة أو قادوها بالفعل ، وقادوا العالم معها للدمار ، ونشروا فلسفة التشاؤم بين الناس ، أمثال — المعرى ، وملتون ، وجنكيزخان ، وروسو — لا لشىء إلا لأنهم كانوا ذوى عاهات بدنية وتكوين جسمانى ناقص فى ناحية من النواحى كان سبباً فى حرمانهم متع الحياة التى كان يرتع فيها زملاؤهم من الأطفال والشبان ، بل إن العلامة الصغيرة فى البدن قد يكون لها أثر كبير فى تعلق الناس بصاحبها أو نفورهم منه ونجاحه أو فشله فى الحياة ، ومن ثم تكون سبباً فى تكوين الشخصية المحبوبة أو المكروهة ، فكم من الناس منعهم كبر أنفهم أو طول آذانهم أو قصر أجسامهم من تبوء المراكز التى تؤهلهم لها استعداداتهم مالم يصلوا إليها بالقوة والثورة أو محض الصدفة أو بطريق غير مشروعة ، وكم من الناس من تجعله الشامة على الخد أو الحور فى الطرف محبباً للناس مطلوباً فى مجالسهم (٦٩) .

والمظهر الخارجى واللباس لهما أثر كبير فى إظهار الشخصية وإخفاء عيوب الخلقة .

وقد قيل النظافة من الإيمان . وفى الأحاديث الشريفة : « أكرم شعرك

إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

٦ — أما مهنة الإنسان وعمله الذى يزاوله فهو بالضرورة يربطه بأشياء ومواقف معينة ويكسبه نوعاً خاصاً من العقلية والمزاج وأسلوباً خاصاً من التصرفات ، فقيادة الثيران أو الدواب تكسب الإنسان عقلية بطيئة متواكلة ، أما قيادة السيارات — وخصوصاً سيارات الأجرة فى العواصم الكبيرة التى تشتد فيها حركة المرور — تجعل السائق حاضر البديهة جريئاً وقت الخطر سريع التصرف ، وتصحيح الكراسات المدرسية يومياً مدة طويلة أو التفتيش على أعمال الناس يكون عقلية الإنسان تكويناً خاصاً يجعله دائماً متصيداً للهفوات متطلعاً للنقص (٧٠) .

وقد ينشأ شخصان فى مستوى واحد وباستعدادات متقاربة ثم يتخذان مهنتين متعارضتين كالتجارة وخدمة الدين ، فلا يلبثان أن يكتسبا شخصيتين متناقضتين إحداهما حريصة جشعة مادية والأخرى سهلة لينة روحية ، بل إن الشخص الواحد لتتغير شخصيته فى مهنة ما عنه لو اتخذ غيرها من أول الأمر ، وكثيراً ما يجعل الإنسان عمله الذى يقوم به محور حياته فيتحدث عنه وعما يجده فيه ويرفعه فوق سائر الأعمال ، أو يشكو منه فيراه أسوأ الأعمال ، حتى لكأن الطحان يرى أن القمح لم يخلق إلا لمطحنته .

ومن ظريف ما يروى فى تطبع الإنسان بطابع مهنته ما رواه ابن خلدون أن رضوان قال : أنشدت أبا العباس بن شعيب مطلع قصيدة ابن النحوى ولم أنسبها له :

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال له على البديهة : هذا شعر فقيه . من قوله ما الفرق إن هى من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب .

ويؤثر عن الإمام الشافعي وبعض أصحابه أنهما كانا في المسجد إذ دخل رجلان ، فقال الشافعي : وأشار إلى أحدهما هذا نجار ، فقال صاحبه : وهذا حداد ، فكانا كما قالا .

وقد أصبح لكل مهنة اتحاد ورابطة وناد ومجلات وجرائد وكل هذه عوامل تجسم الشعور بالمهنة وتساعد على تكون الشخصية المهنية .

٧ — أما البيئة فلها أثرها المباشر حتى منذ الطفولة ، فإن الطفل إذا لم يعامل من صغره معاملة هادئة طبيعية لينة تساعد مواهبه واستعداداته على النمو في طريقها الطبيعي تكونت فيه عند البلوغ شخصية غير متزنة ، ونحن نستطيع أن نقرأ على ملامح الشبان ونطالع في تصرفاتهم صفحات طفولتهم ونوع حياتهم السابقة ، والصعوبات التي قامت في طريقهم ، ولا فلاح للشخص ولا اتزان للشخصية إلا بعلاج هذه الصعوبات وإعادة تربية الغرائز والانفعالات من جديد حتى تزول العقد التي تكونت فأفسدت على الشباب نفسيته (٧١) .

وكل شخصية مبالغ فيها أو ناحية في الإنسان تندفع بشدة وعنف دليل على عدم اتزان الشخصية ووجود صفة أخرى باطنة خفية تعارضها ، وتكون نفس الإنسان في الواقع مسرحاً لنزعات متطاحنة لا تجعله يتذوق طعم الهدوء والاتزان ، فالشخص المغرور المتعاظم شخصيته غير متزنة بل هو في الواقع يشعر شعوراً تاماً بما فيه من نقص فيحاول أن يخفيه بالتظاهر بنقيضه (٧٢) .

ولذلك نجد أولاد السوقة هم أكثر اعتزازاً بمظاهر وظائفهم ويعاملون مرؤوسيهم بكبرياء وعظمة في حين أن الذين نشأوا في بيوت المجد والأصل والكرم يعاملون الناس بالتواضع وكرم الخلق ولو كانوا أقل

منهم شأناً ، والشعور بالنقص ينشأ عن أسباب عدة ، منها : السخرية وتسخيف الرأى ، وكثرة النقد لعيوب الشباب ، والأخذ بالشدة فى كل تقصير مع عدم الاستحسان للنقط الطيبة ، والثواب على العمل النافع . فيفقد الشاب الذى يعامل هذه المعاملة الثقة بنفسه واحترامه لها ويبتعد بالتدريج عن الناس ويقيم بينه وبينهم سداً ، ويصبح ذا شخصية منكمشة منقبضة . فالأطفال المدللون الذين يحيطهم آباؤهم بكل صنوف الرعاية ويباعدون بينهم وبين الخطر ناسين أن الحياة كلها مخاطر بل هى أكثر التجارب خطراً ينشأون ضعاف الشخصية . وخير تربية للطفل أن نجعله يتغلب على الصعاب لا أن نزيلها من طريقه . وقد ينقلب الشعور بالنقص إلى محاولة للظهور عن طريق السرقة والإجرام وأعمال العنف والاعتداء ، والبيت الذى تسوده السكينة والاستقرار من أهم العوامل لتكوين الشخصيات المتزنة فى الصغار أما البيت المضطرب الهائج فمن أول عوامل الشذوذ ومعول هدم الشخصية ، ولذلك نجد سلوك الأولاد المطلقين والمطلقات والأرامل شاذاً ومنحرفاً فى الغالب بعض الشىء .

أنواع الشخصيات :

حاول العلماء أخيراً أن يضعوا أنواعاً محدودة للشخصيات أو نماذج حتى تألف من ذلك علم جديد أو فرع جديد من فروع علم النفس يسمى علم النماذج « التبولوجيا » واتجهوا فى بحوثهم اتجاهات متعددة ولم يصل البحث إلى شىء من الكمال وباب الاجتهاد فيه مفتوح ، فمنهم من قسم الشخصيات على أساس الرغبات العامة التى تتملك نفوس الناس ، ورأى بعضهم رغبات الناس العقلية أو النفسية تتخذ أشكالا مادية تدور حول الأمور الآتية : الرغبة فى استطلاع الجديد ، والرغبة فى الدعة والأمان ،

والرغبة فى الاتصال بالناس وتبادل المنفعة والرغبة فى الشهرة والصيت (٧٣).

أما ولع الإنسان بالجديد فطبيعى وكل تجربة تخالف المألوف يقبل عليها الناس ولذلك يستطيب الناس جرأة اللصوص والحروب والمغامرات والألعاب الرياضية العنيفة والرحلات والبحوث العلمية ، وما السينما والمسرح والروايات إلا مظهر لها . وهذه الرغبة إذا تملكت شخصاً جعلته جريئاً مقداماً يستهين بالمخاطر ، سريع التنقل لايستقر على حال ، لايعبأ بالتقاليد ولا يقدر المسؤلية ولا يرعى مصالح الجماعة ، وقد ينجح صاحب هذه الشخصية لو عالج الأدب أو القصة أو البحث العلمى .

والرغبة الثانية تناقض الأولى بالضرورة ومن صفات صاحبها الخوف والهرب ، وتجنب المخاطر ، والمحافظة على التقاليد ، واتباع النظام والجمع والادخار خوف الطوارىء فى المستقبل ، وبالجملة كل ما يوطد دعائم الاستقرار والهدوء .

أما الرغبة الثالثة : فأساسها الحب وتبادل العواطف وسرعة الإندماج فى الجماعة ، والتعاون والمساهمة فى أعمال البر وتنظيم الهيئات .

والأخيرة تدفع صاحبها إلى التظاهر حتى بالملبس والمسكن والعائلة ، والثروة والمنافسة والمسابقات . وكل مايفسح المجال للظهور ، ومن ثم كان للرأى العام أثره فى توجيه سلوك الزعماء والساسة والحكام وكل من يتصدى للأعمال الهامة التى يحرص فيها على الظهور أمام الناس بمظهر الشخصية القوية البارزة الفعالة .

على أن الأنواع المتعددة للشخصيات يعتبرها العلماء مراحل ثانوية ، أو صور ناقصة لشخصيتين هامتين ، وهما الشخصية الممتدة أو المنبسطة ، والشخصية المنكمشة أو المنقبضة ، فكما أن عواطف الصداقة والاحترام

والانتقام مراحل ثانوية تؤدى إلى عاطفة الحب أو الكراهية ، فكذلك الأمزجة وأنواع الشخصيات تؤدى إلى هاتين الشخصيتين اللتين هما نهايتا الطريق من ناحيتيه السالبة والموجبة وهما بالضرورة متناقضتان (٧٤) .

فالشخصية الأولى المنبسطة يتميز صاحبها بسرعة التفكير ، وحتى التصرف قبل التفكير ، والإلمام السريع بالأشياء والمواقف ، وعدم الصبر على التعمق فيها لاستقصاء كل أسبابها وسرعة تكوين الأصدقاء ومعرفة الناس والحب المتبادل والثقة بالناس فى المعاملات إلى أن يظهر منهم مايحمل على نزع هذه الثقة والميل للتغيير فى الحياة ، وعدم البقاء على حال واحدة ، والقدرة على الخطابة والتحدث للجماهير وترأس الجماعات والمرح والتفاؤل فى الحياة ، وعدم التفكير فى الماضى ، وسرعة نسيان التجارب المؤلمة ، والصفح والاتفاق ، وبالجملة يريد صاحب هذه الشخصية أن يمتد حتى ليغمر العالم كله بشخصيته ولذلك ترى له أثراً بارزاً فى كل عمل ومجتمع ، محبوباً عند الناس يقبلون عليه وعلى مجالسه ، وإن كان مرحه وتسامحه وإهماله وعدم حرصه يطمع الناس فيه وقد يسيئون إليه ولكنه يبقى كما هو كأن الخسائر المادية ومصائب الدنيا كلها ومتاعبها أقل من أن يفكر فيها وأتفه من أن يعكر من أجلها مزاجه وأعصابه ، ولعله ينطبق عليه قول الرسول الكريم : « رحم الله عبداً سمحاً إذ باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى » أو قوله : « أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ما ذا عملت فى الدنيا ؟ قال يارب آتيتنى مالا ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقى الجواز ، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك ، تجاوزا عن عبدى » وصاحب الشخصية المنقبضة على على النقيض ، رجل يحب العزلة والابتعاد عن الناس ليتقى شرهم ، ويأمن

مكائدهم ، دائب التفكير والتحليل لنفسه ولشعوره ، يحسم هفواته وهفوات الناس ، وينظر إلى الدنيا بمنظار التشاؤم الأسود ، حريص يعد العدة للمستقبل ، يعمل أموره فى الخفاء بعيداً عن الناس ، يتذكر ماضيه ، ويتألم لسيئاته ، ولا يؤمل الخير فى مستقبله ، لا يتصرف قبل أن يدرس كل تفاصيل الموضوع .

وبالجملة هو الصورة السلبية للشخصية السابقة ، وقد يفيده حرصه وحذره ، وقد ينفعه تكتمه ووقاره ، ولكن كل هذا على حساب أعصابه ومزاجه ، فيقول مع المعرى :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ويقول أيضاً :

يا عين قد صار البكا لك عادة ... تبكين من فرح ومن أحزان

فكل من هاتين الشخصيتين لها مزاياها ومثالبها ، وخير للإنسان أن يكون صاحب شخصية ممتزجة منهما أو متوسطة ، فيمتد أحياناً فيما يفيد الامتداد فيه ، وينكمش فيما يفيد الانكماش فيه ، أو يمتد مع الناس وينكمش مع نفسه فيصبح متزناً معتدلا هادئاً ، لو كان هذا فى مقدور كل إنسان .

ومن الواجب أن ندرس شخصيات الناس الذين نتعامل معهم ونعامل الغير من الناحية التى تقربه إلينا وتحببه فينا وتكسبه ثقتنا ، فلا نعظ الممتدين بالعذاب والويل والثبور ونحاسبهم على هفواتهم ، فهم يقبلون النقد والنصح ونعرض لهم الرأى على بساطة بلا لف ولا دوران ، أو نطلب منهم التنفيذ دون أن نرسم البرامج ، وندعوهم إلى المساهمة فى كل عمل جمعى بدون مقدمات ونشجعهم ، ولا نذكر لهم احتمال الفشل مالم يكن ذلك محققاً .

أما المنقبضون فلا نحدثهم فى أمورهم الخاصة ونتحايل فى نقدهم ، ونخفف من وقع أخطائهم ونعظهم بما ينفعهم فى دينهم قبل دنياهم ، ونتركهم يعملون عملهم فى هدوء بعيداً عن رقابتنا ، ولا نحرجهم بإرغامهم على الإندماج فى الجماعات ، ولا نثير فيهم الشك ، وبذلك نريحهم ونكون عوناً لهم على أعصابهم ، وقد نكسب ثقتهم وصداقتهم فنستطيع أن نلطف من نظرتهم للحياة ، وأن نردهم إلى حظيرة الجماعة .

المقاييس العملية :

اهتم العلماء فى العهد الأخير اهتماماً كبيراً بوصف الأمزجة والعواطف والشخصيات وتصويرها وعلى أساس دراستهم المستفيضة هذه — وإن لم تبلغ حد الكمال بعد — وضعوا اختبارات ومقاييس عملية لأنواع الناس . وقد جربت المقاييس على عدد كبير من الناس فضبطت إلى حد ما ، وأفاد استخدامها كثيراً وإن كانت نتائجها تقريبية منها الحكم على المزاج من نوع الخط (٧٥) .

ومعرفة الخلق من الحكم على مواقف أخلاقية معينة وتحديد نوع من الشخصية من الصفات التى يعرفها الشخص فى نفسه أو يعرفها الناس فيه ، ونذكر على سبيل المثال الاختبار الآتى لمعرفة الشخصيتين المنبسطة والمنقبضة ، والمقياس كما وضعه أصحابه ليس على هذه الصورة ، وقد عدلته ليكون تقديره سهلا ، فعلى من يريد أن يختبر نفسه أن يجيب عن كل سؤال إجابة صريحة بنعم أولا ويلاحظ صيغة السؤال إن كانت إثباتاً أو نفياً (٧٦) .

١ — هل تفكر دائماً فى النواحى السارة من الحياة .

٢ — هل تثق بالناس ثقة كبيرة ، حتى قبل أن نعرفهم معرفة كافية .

٣ — هل تحب أن تعمل عملك وحولك جماعة من الناس ؟
٤ — هل تسر من المجتمعات لمجرد وجودك مع جماعة من الناس ؟
٥ — هل تقبل مقترحات الغير بدلا من أن تفكر فيها أنت ؟
٦ — هل تمل العمل المتعب ؟
٧ — هل يندر أن تحلل أفكارك ودوافعك؟
٨ — هل تحب أن يشاهدك الناس وأنت تعمل عملا وتحسنه ؟
٩ — هل يشجعك مديح الناس على العمل ؟
١٠ — هل تميل إلى أنواع التسلية غير الهادئة ؟
١١ — هل تحب أن تترأس المجتمعات ؟
١٢ — هل تحب أن تحاضر الجماهير وتخطب فيهم ؟
١٣ — هل تحب أن تعمل عملك بسرعة فى غير إبطاء أو تدقيق ؟
١٤ — هل يسهل عليك أن تعبر عن مشاعرك الوجدانية ، كالفرح والغضب ؟
١٥ — هل يضايقك الدخول فى التفاصيل ؟
١٦ — هل تخالط الناس بحرية ولو خالفوك فى الرأى ؟
١٧ — هل تنفذ مقترحات الناس ولا تقف للتفكير فيها ؟
١٨ — هل تعنى بموضوع القصة والقطعة الأدبية أكثر من الأسلوب ؟
١٩ — هل تتصرف بوحى الساعة ؟
٢٠ — هل تكره التفكير فى الأمور الخاصة بك ؟
٢١ — هل تحب تغيير العمل بسرعة ؟
٢٢ — هل تبوح بأسرارك لمعارفك ؟
٢٣ — هل تدرس شخصيات الناس أكثر مما تدرس نفسك ؟

٢٤ — هل تغير رأيك بسهولة ولو بعد تكوينه ؟
٢٥ — هل تشترك اشتراكاً فعلياً فيما يدور حولك من مناقشات ؟
٢٦ — هل تكره أن تنفرد بنفسك كثيراً ؟
٢٧ — هل تنفعل أو تضطرب أحياناً ؟
٢٨ — هل تكره أن تشغل نفسك بالتفكير فى المستقبل البعيد ؟
٢٩ — هل يضايقك الابتعاد عن المجتمعات ؟
٣٠ — هل يضايقك الاستمرار فى عمل واحد طول الوقت ؟
٣١ — هل تصمم على أمر ماقبل أن تفكر فيه ؟
٣٢ — هل تكره أنواع التسلية الهادئة ؟
٣٣ — هل يسرك مراقبة الناس لك وأنت تعمل عملا ما ؟
٣٤ — هل يندر أن تستسلم لأحلام النهار والتخيلات ؟
٣٥ — هل تستطيع أن تضبط نفسك ولاتخرج عن حدك وقت الغضب ؟
٣٦ — هل ترى أنك قلما تفكر فى الأمور الخاصة بك ؟
٣٧ — هل تظهر عدم الاهتمام بتخيلاتك وآمالك فلا تسعى لتحقيقها ؟
٣٨ — هل يندر أن يهمك أسلوب الغير فى الكتابة فلا تحاول أن تقلد أحداً أو تقتبس منه ؟
٣٩ — هل يضايقك أن تفكر كثيراً فى موضوع واحد .
٤٠ — هل تعامل الناس ببساطة فلا تتصنع ولا تتحفظ ؟
٤١ — هل تكره أن تتعب نفسك فى الأحاجى والفوازير والأمور المعقدة ؟
٤٢ — هل تفضل الأمور العملية على النظرية ؟
٤٣ — هل يندر أن تدون يومياتك فى مذكرة ؟

٤٤ — هل يضايقك أن يتكلم الناس فى مجتمع ولا تشاركهم حديثهم .
٤٥ — هل تفضل ألا تفكر فى شىء ما قبل أن تبدأ عمله ؟
٤٦ — هل تفضل أن تواجه المتاعب بدلا من الهرب منها ؟
٤٧ — هل تعتقد أن الإشاعات غير صحيحة ؟
٤٨ — هل تثق بالناس قبل أن تعرفهم معرفة صحيحة ؟
٤٩ — هل تميل إلى قضاء عطلتك فى الأماكن المزدحمة ؟
٥٠ — هل تميل إلى الإنفاق أكثر من الادخار للمستقبل ؟

وبعد أن يجيب بنعم أو لا على كل سؤال ويرى ماينطبق عليه منها وما لاينطبق ، ويصدق فى حكمه ولا يغش نفسه يعطى كل نعم درجة واحدة موجبة أو (+ ١) وكل (لا) درجة واحدة سالبة أو (— ١) وكل سؤال لم يستطع أن يجيب عنه صفراً ثم يجمع هذه الدرجات جمعاً جبرياً فتكون الدرجة النهائية دليلا على الشخصية ومقدار قربها من الشخصية المنبسطة تمام الانبساط وهى (+ ٥٠) أو المنقبضة تمام الانقباض وهى (— ٥٠) أو المتوسطة المنبسطة المنقبضة وهى (صفر) فإن كان عدد إجابات نعم (٣٨) مثلا وعدد إجابات لا (١٠) مثلا والأسئلة التى لم يجب عنها (٢) تكون درجته ٣٨ — ١٠ = ٢٨ فهو صاحب شخصية منبسطة إلى حد مقبول وإن كان مجموع درجاته مثلا ٨ — ٢٤ = — ٣٤ فالشخصية شخصية منقبضة إلى حد كبير ويمكن اعتبار الشخصية المنبسطة من + ١٥ إلى + ٥٠ والمنقبضة من + ١٥ إلى — ٥٠ والمتوسطة العادية من + ١٥ إلى — ١٥ (٧٧) .

الباب الثامن

الزعامة

تمهيـــد : يظهر فى كل جماعة من الناس ، بين حين وآخر ، أفراد لهم شخصيات بارزة ، وصفات قوية تميزهم فى ناحية خاصة ، عن غيرهم من أفراد هذه الجماعة . وتؤثر هذه الصفات القوية فى الجماعة فتستهويها وتتسلط عليها ، فتسلم أمورها لهم ، ويصبحون لها زعماء وقادة ، وينضم اليهم عدد من الأتباع المخلصين ، يدينون بمبدئهم ويدافعون عنهم وعن وجهات نظرهم وقد تتطور هـذه الفرقة المؤلفة من الزعيم وأنصاره وأتباعه ، فترسم لها برنامجاً ، وتضع لها نظاماً تسير بمقتضاه ، وتصبح مدرسة فلسفية ، أو مجمعاً علمياً ، أو مذهباً دينياً أو فنياً . أو هيئة ثورية أو حاكمة ، أوحزباً سياسياً ، هؤلاء النـــاس أمثال كونفوشيوس وأبى حنيفة ومارتن لوثر فى الدين ، وأرسطو وديكارت فى الفلسفة ، والمعرى وشاكسبير فى الأدب ، وابن العربى وابن الفارض فى التصوف ، وفرويد وانيشتاين فى العلم ، ورافائيل وبيتهوفن فى الفنون . يتركون أثرهم فى الحياة العامة والخاصة على مر الأيام ويطبعون عقول الأفراد والجماعات بطابعهم الخاص ، ويوجهون الأفكار والنشاط والإنتاج فى الطريق الذى رسموه وابتدعوه ، ويستمر أثرهم بعد وفاتهم ، ولو على الأقل فى فريق خاص من الأتباع . بل أن الكاهن والقسيس والمفكر والثائر والفنان وكل من يتمتع فى بيئته الصغيرة بمركز يمتاز نوعاً ما عن سائر أفراد الجماعة ، ولو فى ناحية قليلة الخطر ، يكون له أثر خطير فى توجيه هذه الجماعة الصغيرة التى ينتهى اليها ، حتى الساحر فى

قبائل المتوحشين من أواسط أفريقيا ، والطبيب العراف فى مجاهل استراليا والصياد الماهر فى قبائل الهنود الحمر والإسكيمو ، والمنجم وكاشف البخت فى البيئة الريفية الساذجة ، كل هؤلاء لهم من الأثر فى الجماعات الصغيرة البدائية ما لأرسطو ونيوتن وماركونى فى البيئات الكبيرة المتحضرة (٧٩) .

وهكذا تجد للناس زعماء فى كل فن وعلم ، وكل ناحية من نواحى الإنتاج العقلى واليدوى ، وكل حركة من الحركات الاجتماعية . ويبلغ من سلطان هؤلاء الزعماء ، أن الناس تغالى فى تقديرهم ، وتشيد بذكرهم ، وتنظم القصائد تغنياً بحبهم ، وتسجل كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم ، وتؤلف الكتب فى وصفهم ، وتوضع السير فى تفصيل تاريخ حياتهم ، وينسب لهم كل عمل جليل يتم فى عهدهم بتأثيرهم ، أو فيما بعدهم بتأثير تعاليمهم ، وتقام لهم التماثيل وتخلد ذكراهم بكل ما وسع الناس من وسيلة ، ويحج الناس إليهم وإلى آثارهم فى مختلف الأقطار ويتجشمون المشاق فى سبيل رؤيتهم واستماع حديثهم . بل أنه ليكفى أن ينشأ عظيم فى قرية ما ، حتى يعلو شأنها ويكثر عمرانها ، وتصبح كعبة الحجاج والقصاد (٨٠) .

وكم من قرية صغيرة ، وبلد ناء صغير يعرفها الناس أكثر مما يعرفون بلادهم ، لأنها اقترنت باسم زعيم أو عظيم ، كمعرة النعمان بلد المعرى ، وستراتفورد أون إيفون بلد شاكسبير .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن « ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا » ، وهى الأوثان التى كانت فى قوم نوح أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا أنصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون إليها أنصاباً بأسمائهم وعند تقادم الزمان عبدت بذبائح تذبح منذورة وغير منذورة واستشفع بها ودعيت .

وليس تقدير الملوك والأمراء والخاصة بأقل من تقدير العامة والدهماء لهم . فقد أنزل الإمام مالك الخليفة هارون الرشيد عن المنصة وأقعده مع العامة عند القاء الدرس ، لأنه فى رتبة المستفيد ، ولم يستنكر الخليفة ولا الرعية هذا الفعل .

ويذكر على بن يوسف القفطى أن أهل المعرة عند ما حاصرهم صالح ابن مرداس صاحب حلب سعوا الى أبى العلاء المعرى ليخرج له ويشفع فيهم ، فأكرمه صالح واحترمه وسأله ماجئت فقال :

الأمير — أطال الله بقاءه كالسيف القاطع ، لان مسه وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاظ وسطه ، وطاب برده — خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين .

فقال صالح قد وهبتها لك وترحل . وكان أمراء العباسيين يحفظون للعلماء من أهل الذمة مقامهم ويصلونهم عن سعة ويحوطونهم بصنوف الرعاية كما لو كانوا مسلمين . فلما مات سلمون بن بنان النصرانى . وكان طبيب المعتصم جزع عليه جزعاً شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى ، وكان المتوكل يعطى حنين بن اسحاق وزن ما يترجمه ذهباً . وانتهت الرئاسة - وهى أعلى مراتب الدولة - إلى يحيى بن عدى بن حميد بن زكريا المنطقى ، وبلغ ثابت بن قرة الحرانى الصابى عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه . والتبسط ورفع الكلفة من جانب الحكام والأمراء ، دليل على التقدير .

ومنه أن بختيشوع بن جبريل جلس الى جانب المتوكل يوماً وعليه دراعة حرير بها فتق ، فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل الى ما اتسع من الثوب (النيفق) وسأله : بماذا تعلمون إن الموسوس (المصاب

بخبل فى عقله) يحتاج الى الشد بالحبل حتى لا يؤذى الناس ؟ فقال بختيشوع : إذا عبث بفتق دراعة طبيبـــه حتى بلغ النيفق شددناه ، فضحك المتوكل حتى استلق .

ظاهرة طبيعية إنسانية : والإنسان بطبيعته قابل لأن يتزعم وأن يخضع لزعامة ، بحسب ما توجبه الظروف ، حتى فى المجالس العادية والأعمـــال البسيطة ، وقد ورد فى الحديث الشريف :

« إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » . والمتتبع لتاريخ الجماعات البشرية وتطورها يرى هذه الظاهرة محسوسة ملموسة من أقدم العصور تظهر باضطراد الى الآن ، وإلى ما بعد الآن . فقد بدأ النـــاس فى أول تكوينهم ، قبل عصر الديانات السماوية بآلاف السنين ، يشعرون بحاجتهم الى إله يتصرف فى شؤونهم كيفما كان ، وصورت كل جماعة منهم إلاهها كما سمح لها خيالها . ولكنهم جميعاً تخيلوا الآلهة كأفراد على صورة البشر يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتقاتلون وينعمون بالحيـــاة وملاذها ، ويشقون بآلامها ومتاعبها ، ويجرى عليهم ما يجرى على سائر الناس . فهم بشر أو كالبشر ، ولكنهم فى نظرهم أقوى إرادة وأكبر عقلا ، وأكثر قدرة على التصرف من سائر البشر .

وبعبارة أخرى وهم أناس زعماء ، وأساطير المصريين القدماء عن أوزيريس وإيزيس وهوروس ، وأساطير الهنود عن براهما وراما ، وإلياذة هوميروس عن حيـاة آلهة اليونان فى جبل أوليمبوس ، مليئة بهذه الصور الإنسانية .

أما فيما بينهم وبين أنفسهم ، وقد كان عمـاد حياتهم فى أول نشأتهم الصيد والقنص ، وشغلهم الشاغل الحصول على القوت ، وقتـال الحيوان

الذى هو مصدر القوت ، فكانوا يدينون بطبعهم لزعيم دقيق الحس ، خبير بمواطن الصيد وعاداته سريع التصرف وقت الخطر ، وله فوق هذا قدرة اقتصادية على تنظيم موارد القوت وتوزيع الارزاق وادخار الزائد عن الحاجة ، ولذلك كان هذا الزعيم يسمى بالصياد الأول .

وانتقلت الجماعة البشرية إلى طور الزراعة ، فاستقرت نوعا ما ، واستوطنت قطعة من الأرض تفلحها وتزرعها وتستغلها ، وأصبح لها ملك تدافع عنه ، وتكونت بينها وبين الجماعات القريبة منها روابط وعلاقات بحكم الزواج والتبادل والتعاون ، وداخلها الحرص على ملكها والطمع فى ملك الغير إذا ضاقت بها موارد الرزق ، فأخذت تختار من بين محاربيها الأشداء الممتازين محارباً كبير الجسم والعقل ، خارق البسالة مسموع الكلمة ، فكان الزعيم هو المحارب الأول ، وطبيعى أن يتخذ هذا الزعيم من رجال القبيلة الأقوياء بطانة يرتبط معها برباطة النسب ويوليها شيئاً من السلطة إرضاء لها من جهة حتى لا تنافسه وتطمع فى اغتصاب سلطانه وللانتفاع من مواهبها من جهة أخرى . ويصبح كل من الزعيم والبطانة رقيباً على الآخر فتتحقق المصالح العامة ويأمن الضعفاء على أنفسهم وأملاكهم إذا اختلفوا فيما بينهم أو يستبدون بهم ويضحونهم على مذبح شهواتهم ومطامعهم ان اتفقت البطانة مع الزعيم ، وهذه الخطوة هى باكورة النظام السياسى الإنسانى ، وترى أن الأمير أو الملك أو الحاكم فى هذا النظام السياسى الفطرى كان هو الزعيم القائد ، وأن الحكم كان أوتوقراطياً فردياً استبدادياً (٨١ ، ٨٢) .

ولذلك كانت الشعوب ترفع ملوكها وأبطالها وشعرائها وكهنتها ، وهم زعماء قوتها وفكرها وفنها ودينها إلى مرتبة الآلهة وأنصاف الآلهة أو على

الأقل إلى مرتبة القداسة والمعصومية ، ففرعون هو الإله بذاته ، وأخيل فى اليونان هو ابن الآلهة ، وميكادو اليابان هو ابن الشمس ، وامبراطور الصين هو ابن السماء .

وتزداد ظروف الجماعة تعقيداً ، وتتعدد حاجاتها ونواحى نشاطها ، وغذائها ، وطبيعة مواردها ، وعلاقاتها بالجماعات الأخرى ، فينشأ نظام الطبقات : طبقة الأشراف أو الزعماء أو الرؤساء والحكام ، وطبقة المحاربين ثم العامة ، وأخيراً طبقة العبيد .

ويسعى الزعماء الى تدعيم هذا النظام استدامة لنفوذهم ، فيخلعون عليه صفة آلهية ، أو دينية روحية ، فيصبح الحاكم خليفة الإله الذى حلت روحه فيه ، ويخلق الزعماء من رأس الإله — كما تقول الأساطير البرهمية — والمحاربون من ذراعيه وصدره ، والعامة من ساقيه وقدميه ، والعبيد أو المنبوذون من التراب الذى يسير عليه (٨٣) .

ويسعى الحكام من جانبهم لاستدامة نفوذهم فى حياتهم لأنفسهم ثم لأولادهم وذريتهم من بعدهم ، وتسقط عن الحكام صفة الزعامة الأولى وتبقى لهم صفة الوراثة ، وتنشأ عن ذلك الأنظمة المختلفة للحكم ، من الحكم الفردى الأوتوقراطى الذى يتولاه ملك واحد ، والدكتاتورى الذى يتولاه واحد من الشعب بمفرده يغتصب السلطة لنفسه ، أو يستبد به مع وجود الحاكم الشرعى ، أو الدستورى الذى يتولاه الحاكم مع طبقة مختارة من الشعب ، أو الجمهورى الذى يتولاه الشعب نفسه باختيار واحد منهم بحكم لأجل معين ، وليس من شأننا المفاضلة بين هذه الأنظمة وتحديد مركز الزعيم فيها (٨٤) .

الظروف المهيئة لظهور الزعماء :

على أنه مجرد اعتراف الجماعة لفرد ما بالشخصية القوية الممتازة لا يكفى وحده لأن يخلق منه زعيما يطاع أو قائداً يتبع فالبيئة التى تكون ظروف الحياة فيها سهلة ميسرة ومعاملات الناس فيها بسيطة مألوفة ، تسير فيها الأمور الاجتماعية فى مجراها الطبيعى بحيث لا تحتاج إلى شخصية جبارة تنظمها أو تجدد لها أفكارها ومعاملاتها وأساليب حياتها ، بل إنها لتجد فى تقاليدها وعرفها وسنة آبائها الأولين دستوراً لعقيدتها وأفكارها وفنونها وآدابها وأخلاقها وجميع مظاهر حياتها ، تشهرها سلاحاً فى وجه كل من تحدثه نفسه بالتجديد .

وتاريخ الرسول الكريم والإسلام حافل بالجهاد فى سبيل الدعوة إلى الحق والتوحيد ومكارم الأخلاق ، والعمل على إخراج العرب مما كانوا غارقين فيه من أمية وضلالة وانحلال خلق وتفرق كلمة ، فهل كان هذا الجهاد المستمر فى أول الدعوة إلا مع أهل الرسول أنفسهم ، وقريش والعرب الذين بعث الرسول ليهديهم ، فيسعدهم فى دنياهم ويفتح لهم طريق الجنه فى أخراهم . يقول الله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ويؤمر الرسول بالدعوة « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » فيلبى الدعوة ويبدأ بالتوحيد ، والسمو بالعرب من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تضر ولا تنفع « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ، فيقول المشركون : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب » وانطلق الملأ منهم أن امشوا

واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا فى هذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا » ويؤمر الرسول والمؤمنون بالدعوة إلى مكارم الأخلاق « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » « لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم » . ويقف الرسول الكريم يدعو الناس فى مواسم الحج إلى دينه القويم ويقول « أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على الكتاب ، فهل تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم لله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر » فيسخر منه قومه ويألبون عليه القبائل . ويؤمن به غيرهم من الحجيج كالخزرج . ويعاملهم بالحسنى ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة فيدفعون بالسيئة ، ويكيدون له ويؤذونه ويأتمرون عليه ويسدون عليه المنافذ . فيضرع إلى مولاه « اللهم أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى . إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل عليك سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فهل كان للعرب فى سوء مسلكهم وعنادهم واستمرارهم فى كفرهم وطغيانهم، والبقاء فى ظلام جهلهم خشية نور اليقين، ووضع أصابعهم فى آذانهم خشية كلمة الحق، إلا دافع واحد، هو أن هذه الدعوة الجديدة تنكر آلهتهم وتسفه أحلامهم وتهدم تقاليدهم التى ورثوها عن آبائهم الأولين. ومنهم من لم يعرف للتقاليد حكمة ولا للدعوة الجديدة معنى، فانساق وراء رؤسائه ومشايخه يعبد كما يعبدون، ويقول كما يقولون. وفيهم يقول الله تعالى «وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا». ومنهم الضعفاء المستكينون يخضعون للأقوياء المستكبرين «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول: يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً. وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون». «وإذ يتحاجون فى النار، فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها، إن الله قد حكم بين العباد».

وهكذا تاريخ الدين والعلم والإصلاح كله كفاح بين التقاليد ونزعة التجديد، ويطول أمد الكفاح بقدر رضا الناس عن ظروفهم القائمة وعدم الرغبة فى تغييرها. ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

فإذا تغيرت ظروف الجماعة الإنسانية وتعقدت أحوالها وطرأ عليها

أمر لا تستطيع أن تتصرف فيه كما كانت تتصرف من قبل ، وعجزت وسائلها القديمة المألوفة عن مجابهة الموقف الجديد ، كما يحدث وقت الأزمات وعند الكفاح والأخطار العامة من حرب أو مجاعة أو وباء ، وفى أدوار الانتقال ، فإن الجماعة تفقد رشدها أولا وتتخبط فى أمورها وتدفع ثمن هذا التخبط غالياً ، من دمائها وأموالها وأولادها ، وتجد نفسها آخر الأمر مضطرة للبحث عن رجل فذ كبير الشخصية له كفاية ممتازة تناسب الظرف القائم ، وتثق فى قدرته ، أو يخيل اليها إنها واثقة ، وترى أنه جدير بتحمل العبء الثقيل والتصرف بأقصى سرعة بما يضمن الخلاص من المأزق ويحقق الغاية المنشودة (٨٥) .

وأحياناً تجد الجماعة عدة شخصيات كبيرة كلها جديرة بالزعامة فى هذا الظرف الخاص فتترك لها حق اختيار واحد منها زعيما عليها ، أو تختار الجماعة بدون تردد زعيما لها من بينهم ولا تقبل بعدئذ أن ينافسه أحد ، ما دام الظرف الذى دعا الى وجود هذه الزعامة قائماً ، وقد منى الإسلام بظرف طارىء كهذا عند ما توفى الرسول ولم يترك وصية ولم يستخلف أحداً ، والتبس الأمر على الناس فى اختيار خليفة رسول الله ، وأرادت كل قبيلة أن تؤمر رئيسها ، أو يتصالحوا على أن يكون من هؤلاء أمير ومن أولئك أمير ، وبدأت الفرقة تدب بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج وبين بنى هاشم وغيرهم .

وهنا تخطو الشخصية الكبيرة خطوتها الأولى ، فيقف أبو بكر الصديق يوم السقيفة ، يخطب الأنصار ويناشدهم أن يختاروا الخليفة من المهاجرين الأولين « إنما أدعوكم إلى أبى عبيدة أو عمر ، فكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر ، وكلاهما له أهل . فلم يسارع أحدهما لاغتنام الفرصة ، ولأبى

بكر ماله من مقام فى نفوس المسلمين ، فيرد أبو عبيدة يامعشر الأنصار : أنتم أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير . ويرد عمر : معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا ، أنت أحقنا بهذا الأمر وأقدمنا صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفته على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك ، أبسط يديك أبايعك ، وتتم البيعة لأبى بكر أول الخلفاء الراشدين ، وقد سار فى خلافته السيرة المثلى ، وكان أصلح الناس للخلافة بحكم البيعة والزعامة بقوة شخصيته ، وراح فى سير الرجال مرضياً عنه من الله والناس . ولكنه مع هذا كله يقول وقد مرض مرض الموت : ليتنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت ضربت على يد أحد الرجلين أبى عبيدة وعمر ، فكان هو الأمير وأنا الوزير . وهم بهذا يعملون بقول الرسول الكريم : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين » .

وكم من رجال ذوى شخصيات ممتازة بحق ، أدوا لبلادهم من الخدمات القومية ما لم يؤده الساسة والزعماء ، ومع هذا فلم ترفعهم أممهم إلى مرتبة الزعماء ، لأنهم كانوا يعملون فى صمت وهدوء ، أو كانت أعمالهم بعيدة النتائج فلم يقدر الناس خطرها فى وقتها ، أو كان تفكيرهم فوق مستوى عقلية الجماهير بكثير ، أو كان فى خلقهم الشخصى شىء من التردد والحذر والتكتم يجعلهم محترمين بالعقل مكروهين بالوجدان ، أو تكون المشروعات والغايات التى كرسوا أنفسهم لتحقيقها بعيدة عن مصالح الجمهور المادية وحاجاتهم الملحة الطارئة ، فلا يتطلع الجمهور اليهم ولا يحس بهم ، ولا يعرف فضلهم

إلا بعد أن يخنى ثمـــار جهودهم ، أو يكون فيهم صفات ليست محببة الى الناس ، قد تضعف من أثر الصفات الطيبة التى يتحلون بها ، ولولاها لكملت زعامتهم . ونجد لهذا أمثلة كثيرة فى صدر الإسلام عند ما كانت الخلافة منوطة بالزعامة وقوة الشخصية ورضا الناس قبل أن يجعلها معاوية وراثية فقد دخل المهـاجرون على عمر رضى الله عنه ، بعـد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسى وقالوا : ياأمير المؤمنين استخلف علينا ؟ فقال : والله لأحملكم حياً وميتاً ، إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (أبو بكر) وإن أدع فقد ترك من هو خير منى (الرسول الكريم) — يامعشر المهاجرين الأولين إنى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً ، فإن يكن بعـدى شقاق ونفاق فهو فيـكم ، تشاوروا ثلاثة أيام ولا تتفرقوا حتى تستخلفوا أحدكم ، فقالوا : قل فينا ياأمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدى به ، فنظـــر إلى النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهـم راض ، وقال : والله ما يمنعنى أن أستخلفك ياسعد (بن أبى وقاص) إلا شدتك وغلظتك مع إنك رجل حرب ، وما يمنعنى منـك ياعبد الرحمن (بن عوف) إلا أنك فرعون هذه الأمة ، وما يمنعنى منك يازبير إلا أنك مؤمن الرضا كافر الغضب ، وما يمنعنى من طلحة (بن عبيد الله) إلا نخوته وكبره ولو وليها وضع خاتمه فى إصبع امرأته ، وما يمنعنى منك ياعثمان (بن عفان) إلا عصبيتك وحبـك قومك ، وما يمنعنى منك ياعلى (بن أبى طـالب) إلا حرصك عليها وإنك أحرى القوم بها إن وليتهـا أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم .

وقال عبد المـلك بن مروان فى عبد الله بن الزبير : « إن فيـه ثلاث

خصال لا يسود بها أبداً : عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه ، فلا يسود أبداً » .

قبول الزعامة : وطبيعى جـــداً أن يقبل الإنسان زعامة الشخصيات الكبيرة ، ويسلم لها قياده طواعية واختياراً ، بل إنه ليصطنعها اصطناعاً إذا لم يجدها ، مادامت نزعاته الطبيعية واستعداداته الفطرية تجعله مهيئاً لذلك ، فهو يخاف عند الشدة ويحتمى بمن هو أقوى منه إن لم يجد لنفسه مخرجاً ، ويتهيب الأمر الجـــديد عليه ، وفيه غريزة الخضوع لمن هو أقوى منه ، وشعور سلبى بالذات إزاءه ، وقابلية للاستواء تحمله على قبول آراء الممتازين عنه فى ناحية ما ، والتسليم بها دون مناقشة أو إعمال للفكر والمنطق والعمل بمقتضاها من غير تفكير أو إرادة . وفوق هذا كله فيـه غريزة للتجمع مع أفراد جنسه ، تدفعه للحياة مع الجماعة وفيهـا ، والائتناس بهـا ، والشعور بالوحشة والضيق فى البعد عنهـا . فهو اجتماعى بطبعه ، ومن أهم صفات الكائن الذى يعيش فى مجتمع أن يخضع لسلطان من هو أقوى منه ويستسلم لرئاسته ويقبل زعامته (٨٦) .

وهو إلى جانب هذه النزعات الموروثة يستطيع أن ينمى فيه عواطف مكتسبة تدور حول أشخاص يحبهم ويحترمهم ، ويجلهم ويقدرهم ، ويطيع أمرهم ، ويتفانى فى إرضائهم ، أو حول مبادىء وغايات يجعلها محور سلوكه وتصرفاته ، ويدافع عنهـا ويستميت فى سبيلها ، وينضم إلى لواء من يعمل على تحقيقها ، ثم إن الجماعة التى تسعى لغرض خاص تضع نفسها دائماً طوعاً أو كرهاً تحت إرشاد شخصية قوية ، ترسم لهـا الطريق ، وتنظم لهـا خط السير ، وتعد لها العدة ، وتوحد الجهود الفردية الموزعة ، فتجعل منها قوة عامة ، ونشاطاً اجتماعياً جباراً ، ونظاماً واحداً منسجماً . يمكن الجماعة من

تحصيل هذا الغرض الذى ترمى إليه .

وليس خضوع الأبناء للآباء ، والمتعلم للمعلم ، والمواطن للدولة ، والمؤمن لسلطان الدين ورجاله ، والجنود لضباطهم ، والأهالى لموظفى الحكومة ، والأحزاب السياسية لزعمائها ، إلا مظهراً من مظاهر هذه النزعة الطبيعية .

ويقول ابن خلدون - بعد أن بين ضرورة الاجتماع - أن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر وتم عمران العالم بهم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم ، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان (٨٧) .

ويقول فى مناسبة أخرى : « لابد لهم فى الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه ، وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل ، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بعملهم (٨٨) .

حتى عصابات المجرمين وقطاع الطرق والفوضويين لابد لها من زعيم يوحد جهودها ، فيحكمها بمفرده بيد من حديد ، ويفرض عليها نظاماً قاسياً محكماً ، أو يؤلف لها مجلساً أعلى يتصرف فى شؤونها (٨٩) .

فالإنسان دائماً أحد شخصين : إما متسلط على غيره ، أو معترف له بالسلطان عليه ، والاعتراف معناه قبول رأى المتسلط بلا معارضة والتسليم لإرادة شخص آخر ، والامتناع عن إبداء الرأى الخاص ، إن كان مخالفاً أو معارضاً لرأى الأشخاص الممتازين أو العرف والتقاليد ، أو الهيئات صاحبة السلطان ، ونتيجة تسليم الأفراد لهذا النظام انسجام أفكارهم وأعمالهم

وتصرفاتهم مع أفكار هؤلاء الزعماء من أفراد وهيئات. وسيرهم تبعا لرغباتهم وأوامرهم وإرشاداتهم، وفى الحدود التى تفرض عليهم فرضاً. أو التى يقبلونها بمحض اختيارهم. ويتكون من هذا دافع قوى، يوجه تصرفات الناس وسلوكهم نحو غايات معينة ومن ذلك خضوعنا لله والدين والملك والحكومة والقانون، خضوعاً يفرض علينا أن نشعر ونفكر ونتصرف فى الطريق الذى يحتمه هذا الخضوع، والسلطات تضع لنا القواعد وترسم لنا الحدود، هى تأمر ونحن نطيع، وتشرع ونحن ننفذ، أو هى تضرب لنا العملة ونحن نتعامل بها، وتكون لنا بمثابة الرأس ونحن لها الأعضاء (٨٤).

والزعماء أنفسهم يطالبون الناس باحترام السلطان والقانون. إن كان ذلك مصلحة لهم ولقضيتهم.

فأفلاطون يقول: «إن القوانين منزلة كيفما كانت، وعلى جميع المواطنين يطيعوها طاعة عمياء، ولو كان بها ظلم لفريق منهم (٩٠).

وقد بلغ من احترام سقراط لقوانين بلاده أن فضل شرب السم تنفيذاً لحكم الإعدام، الذى أصدره مجلس الأمة لما اتهم سقراط بالطعن فى الآلهة وإفساد عقول شباب أثينا، على استغلال فرصة الهرب التى أتاحها له أتباعه وشرب كأس السم بيده (٩١).

وفى الحق أن هذه العبودية الإختيارية، والوصاية المفروضة على النوع الإنسانى من قديم الزمان، لظاهرة غريبة ولغز خفى، كان من الممكن أن يبيح العقل البشرى لنفسه التفكير فى صلاحيتها وربما الخروج عليها، كما يحدث أحياناً من بعض الملحدين والثائرين والفوضويين والخوارج

لولا شـــدة اعتقاد المجموع فى ضرورة وجودها وفائدتهـــا للنوع البشرى (٨٤-٨٦).

ولو كان صاحب السلطان مسئولا عن جماعة صغيرة من الناس.

والحديث الشريف يقول «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، وهل هناك أدل على ضرورة وجود الإمام أو الزعيم ولو كان جائراً من قوله عليه الصلاة والسلام: «الإمام الجائر خير من الفتنة، وكل لا خير فيه وفى بعض الشر خيار»، وأدل على ضرورة طاعته ما لم يأمر بمعصية من الحديث: «السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»، وحث المؤمنين على «ألا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»، و «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

ونحن نرى الجماعات البشرية من أقدم عصورها تنقسم إل فريقين: فريق متسلط أعلى يتمثل فى الحاكم والمتبوع والمخدوم، وفريق خاضع أسفل يتمثل فى التابع والخادم والمحكوم. ونرى الناس تقبل نظام الطبقات طواعية واختياراً وإن اختلف الأساس الذى تقوم عليه هذه الطبقات — بحسب المناخ والبيئة والتربية — كما تختلف اللغات والعقائد، فيكون نظاما دينياً أو اجتماعياً أو عسكرياً، ويكون طبيعياً موروثاً. أو مكتسباً مصنوعاً. وهذا النظام على ما يبدو فيه من عيوب واستبداد وإيثار فريق من المقربين فى الحقوق والواجبات، على فريق آخر من المحرومين، فهو

العامل الأكبر فى تطور الجماعات البشرية — من الفوضى المطلقة فى بدء التاريخ، وقت أن كان الإنسان الهمجى المتوحش يرى أن كل شىء فى الوجود حلالا مباحاً له وإن كان الحق لقوة الفرد وحدها — لما وصلنا إلى ما وصلت إليه الإنسانية من قانون ونظام وعرف ووسائل تضمن مصالح الأقلية والضعفاء، بعد أن مرت فى أدوار متعاقبة كلها صراع ونزاع وثورات وانقلابات.

وبدون تبعية الفرد للجماعة — يعمل معها وفق نظامها وأساليبها — وطاعة هذه الجماعة لزعيم يهيمن على شئونها، ويصرف أمورها، ويضع لها نظامها الجديد أو يعدل لها من نظامها القديم، يختل التوازن الاجتماعى بين الأفراد والجماعات والأمم (٨٤).

وكيفما كان النظام الذى ترتضيه الأمة طوعاً أو تحكم به كرهاً، فهى لابد خاضعة لنوع من أنواع الزعامة، ولابد مولية قيادها لشخصيات كبيرة ممتازة فى ناحية من النواحى.

وهذا النداء النفسى للتنظيم الاجتماعى، والدافع الطبيعى لاحترام القوانين وإطاعة الزعماء، يثبت بلا ريب أن مسألة الزعامة والسلطة قوام لمسألة العقيدة، أى أنها ليست ظاهرة تاريخية ولا مادية، وإنما هى ظاهرة نفسية قبل كل شىء.

صفات الزعيم:

يتبين مما ذكرنا أن الزعيم هو فرد له شخصية ممتازة، يشعر الناس بعظمتها فى الناحية التى تتطلبها الظروف القائمة أو هو على الأقل يبدو فى نظر الناس كذلك. والعظمة شىء نسبى يختلف تقديره كاختلاف المقدرين، والمهم أن يكون الزعيم خير من فى الجماعة، وأحسن مافى البضاعة، وأن

يمثل فكرة أو مبدأ يحتل شعور الجماعة ويجذب انتباهها ، ويوجه تفكيرها ولو لوقت قصير ، كنجوم السينما . فإنه لا يمكن أن يصبح فى نظر أتباعه مثلا أعلى إلا إذا كان فوق مستواهم — كالنجم يرى ولا ينال . ومهما كان الزعيم ، قائداً ، أو سياسياً ، أو مصلحاً دينياً ، أو كاتباً اجتماعياً ، أو حتى قاطع طريق ورئيس عصابة ، فهو نسيج وحده ، وزعامته حسنة كانت أم سيئة ، يجب أن تستمد من صفاته القوية المتسلطة ، ونشاطه المستمر الفعال (٩٢) .

وسنحاول أن نصوره فى ضوء مايجب ومالايجب أن يكون عليه .

١ — فهو أولا صاحب مبدأ ورسالة يقنع الناس بها ، أو هو من ناحيته يتمسك بالمبدأ الذى اختير من أجله زعيما ويعمل على تحقيقه ، أو هو وكيل عن الأمة وعن الجماعة فى قضيتها ، فيحاول دائماً أن يعمل فى حدود هذه الوكالة ، وقد وضع الرسول الكريم هذا المبدأ ، فأعلن الناس بادىء ذى بدء بالمهمة التى اختاره الله لأدائها ، وأنه سيلتزم فيها حدود الله التى شرعها فى كتابه الكريم ، حتى أنه عند ما أمر بالقتال فى سبيل الدين « فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » صدع بالأمر وأنذر العرب قائلا : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

٢ — وهو يعتمد على نفسه أولا فى العمل والتنفيذ ، ليضرب المثل الصالح لأتباعه ومؤيديه ولا يتكل على غيره ، وهل هناك فى هذا الباب أروع مما قاله طارق بن زياد فى حملة العرب على إسبانيا : « وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا أن

أبداً بنفسى ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم إليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه . وإن هلكت قبل وصولى إليه فأخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا أنفسكم عليه ، واكتفوا لهم من فتح هذه بقتله » .

٣ — وله أن يستشير أولى الأمر من خاصته ، والشورى من أسس الإسلام ، وهى كذلك أساس العدالة فى المحاكمة والنظام النيابى فى الحكم ، على أن لا يسلم قياد أمره لأحد . حتى ولا لأصفيائه المختارين ومستشاريه الممتازين ، ولا يلغى عقله أو يعمل دائماً بوحى سواه ، وإلا أصبح هو البوق الذى ينفخ فيه أتباعه من وراء الستار فيكشف أمره ، ويسقط فى نظر أتباعه ، ويصبح المستشارون أولى بالزعامة منه .

٤ — ويستطيع أن يعبر عن رأيه بطلاقة وقوة وبردد صدى مايشعر به الناس فى قرارة نفوسهم ، وكأنه يغنى لحن الزعامة على أوتار قلوبهم ، وأن يشبع العواطف قبل أن يقنع العقول ، وأن يلبس خطبه وأقواله فى كل مرة ثوباً جديداً ، فالعامة التى هى القوة الدافعة فى كل الحركات الاجتماعية مولعة بكل جديد (٩٢) .

والزعيم السياسى بصفة خاصة يجب ان يكون قديراً على الخطابة فى كل ظرف وفى كل مكان ومناسبة ، وان يكون مستعداً للكلام والارتجال والإقناع ، والإفاضة فى البيان كلما طلب منه الكلام . وقد كان دهاة العرب السياسيين — امثال عمرو بن العاص — على جانب عظيم من قوة الحجة وفصاحة اللسان ، وحضور البديهة وحسن التخلص . ولا يتعين ان يكون

الزعيم اديباً بليغاً ، وإنما يجب ان يكون سلس العبارة واضح الأداء ، يفهم الناس كلامه على النحو الذى يريد هم ان يفهموه ، وان يلقيه بأسلوب المطمئن إلى نفسه . ولهجة الواثق من غايته . وكم من خطبة قصيرة او جملة واحدة تكون أوقع فى نفوس الناس لأنها تجىء مطابقة لمقتضى الحال .

وقد وقف عثمان بن عفان رضى الله عنه يخطب الناس بعد البيعة ، فارتج عليه ، فقال : « ايها الناس إن اول مركب صعب ، وإن اعش فستأتيكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً » .

وكذلك فعل المعز عند ما دخل القاهرة واستقبل الناس ، وكانوا يتساءلون على حسبه ونسبه ، فما كان منه إلا نثر دنانيره وأمسك بسيفه ، وقال : « هذا حسبى وهذا نسبى » وكفى .

وقد كان الرسول الكريم يتكىء على قوس وهو يخطب فى الحرب فإذا وغط اتكأ على عصا . وعليه ان يكثر من ترديد المسائل الهامة فى مناسبات عدة ، كأن يلقنها للناس وبذلك يكسبها قوة تستهويهم . وقد وردت فى القرآن آيات التوحيد ونبذ الشرك ٣٥٠ مرة ، والإيمان والاعتقاد فى الله ٣٠٠ مرة ، ووصف عذاب جهنم لردع الناس ٢٩٠ مرة ، ووصف الجنة للترغيب ١٩٥ مرة ، فى حين وردت الصلاة مائة مرة فقط .

وينتفع الخطيب بقدرته الكلامية على الوجه الأكمل إذا استطاع ان يسير فى كل خطبه الحماسية على النحو الآتى :

يفكر فى جمهور مستمعيه وينظر إليهم بكل وجهه ، ويبحث عما يهمهم ليتحدث فيه ولا يشعرهم بأنهم اصغر منه مقاماً أو علماً ، ويجعلهم يشاركونه تفكيره احياناً كما لو كان الرأى منهم ، ويفكر معهم ويحسن استخدام النكتة والدعابة التى تدخل المرح على نفوسهم ، ولا يغضب منهم وإنما معهم على

خصومه وخصومهم ، ويكون صوته محتملا — إن لم يكن جميلا — ويغير من اسلوبه وصوته ، فلا يكون نمطياً أو على وتيرة واحدة ، ولا يجعل مظهره وملبسه وحركاته تحتل بؤرة شعورهم ، فتتضاءل امامها قوة الكلام ذاته ، ولا يكون محزناً فى تأثيره ، ويتجنب الكلام المطروق ، والممعن فى الغرابة على حد سواء ، ولا يجعل كلامه مفككاً أو منثراً ، ويرتب نقطه فى مجموعات صغيرة ثم فى مجموعات اكبر ويختتم بقوة (١٠٣) .

٥ — ويكون قادراً على التأثير فى غرائز الناس ووجدانهم ، ومخاطبة عواطفهم ، وأن يشاركهم شعورهم ، بل إنه ليجب عليه أن يجعل من نفسه محوراً تدور حوله مشاعرهم ، ومركزاً تبنى عليه عواطفهم ، وكلما كان أقدر على الاتصال بشعور الجماعة ، ومشاركتها وجدانها ، كانت زعامته أقوى وأظهر أثراً (٩٣) .

وفى هذا يقول الإمام الغزالى : « وذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس أن يقدر على أن يتصرف فيها ، يستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه ، ويكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال عنده — وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً ، وينبغى أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع — فقدر مايعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم ، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب . ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص ، إما لعلم أو عبادة ، أو حسن خلق ، أو نسب ، أو ولاية ، أو جمال فى صورة ، أو قوة فى بدن ، أو شىء مما يعتقده الناس كمالا (٩٤) .

٦ — ويجب أن يظهر دائماً بمظهر القوة المستمدة من المبدأ الحق الذى

يدين به ، والقوة دائماً تستهوى الناس وتجعلهم مطمئنين إلى نجاح صاحبها وهم دائماً يسابقون الظروف فى الحكم على أعمال العظماء الذين عودوهم هذه القوة ، ويتوقعون لهم النجاح فى كل أمر ولو بدون مبرر ، وقبل أن يبدو من مسلك العظماء ما يؤيد هذا الزعم ، بل إنهم لينتظرون منهم أن ينجحوا فى كل عمل ، ولو كان خارجاً عن نطاق دائرة الأعمال التى جعلتهم زعماء ، والعامة تغفر لزعمائها الأقوياء هفواتهم بقدر ماتجسم من حسناتهم ، وتنسى فشلهم بقدر ماتذكر نجاحهم .

وليس من السهل زوال اعتقاد العامة فى زعيم ما حتى بعد سقوطه وفشله فى نظر الخاصة العارفين ببواطن الأمور ، ولذلك تكون مهمة خلاص الخاصة من زعيم فاشل قديم أشق بكثير من إيجاد زعيم صالح جديد (٩٣) .

وليس معنى القوة أن يكون مستبداً بالناس شديداً فى معاملتهم فيجابه الأمة ، أو على الأقل جمهرة المسؤولين فيها بما يصدم شعورهم أو يستهزىء بآرائهم ، لأن طرائقهم فى معالجة الأمور ووجهات نظرهم تخالف طريقته ورأيه ، استناداً إلى ما وصل إليه من مكانة وعقيدة وتقديس فى نفوس الدهماء كأن هذا السلطان الأدبى للزعامة قوة مادية دائمة يصعب أن تتحول أو تتبدل ، أو وقف لايحل ، أو تراث لايبدد ، وكأن الزعامة ضريبة على الجماعة تؤديها وهى صاغرة بلا تبرم ولا تذمر ما دامت قد دانت لهذه الزعامة وأوكلت أمرها إليها ، والاستبداد يؤدى إلى الكراهية التى يحق فيها قول الرسول « ثلاثة لاتجاوز صلاتهم رؤوسهم : العبد الآبق ، وامرأة زوجها ساخط عليها ، وإمام أم قوماً وهم له كارهون » .

فالزعيم الماهر يصطنع الرفق فى سياسته ، والحلم حتى مع خصومه .

وقد ضرب معاوية المثل لدهاة السياسيين وزعماء الأمم بطول صبره وأناته مع خصومه، والإحسان إلى من أساؤا إليه، حتى أصبحوا له مخلصين، وإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم.

وقال تعالى: «فبم رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر».

وقد قال الرسول الكريم عن نفسه: «إن الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثنى معلماً ميسراً» وهكذا يجب أن يكون الزعماء والقادة.

وفى الحديث الشريف: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالا يعطى على العنف، وإذا اقترنت القوة بالتواضع ازدادت روعة وجلالا وسمواً فى المكانة، فكلما دفع الفضل عنه ارتد إليه.

٧ — ويجب أن يكون رائده التوفيق بين وجهات النظر والهيئات ليكتسب من توحيد الرأى، وضم الصفوف، قوة تزيد زعامته ثباتاً واستقراراً، وقد دعا الرسول بعد عهد الحديبية إلى الحج دعوة عامة شملت المسلمين وغير المسلمين من العرب، وأفسد بذلك خطة قريش، وفوت عليهم غرضهم فى إثارة العرب ضده، وإظهار مايترتب على سياسته من كساد فى التجارة ونقص فى المواد، وبذلك جعل العرب كلهم جبهة واحدة تقف أمام قريش.

٨ — ويكون الزعيم للجماعة كالراعى الماهر للقطيع، يسير معه متقدماً خطوات قليلة تجعله معه ولكن ليس مندمجاً فيه، فيشعر القطيع بأنه واحد منهم وإنما فى صورة مكبرة، وأعلى صوتاً وأسرع تخلصاً، فى المواقف وتصريفاً للأمور، يسمعون صوته عند النداء، ويحسون بصوته عند التقريع (٨٦).

٩ — وعليه أن يكيف نزعاته الخاصة وميوله حتى تنسجم مع ميول الجماعة ، لتزداد صلته بهم وثوقاً ، وأن يعمل على إخفاء مايخالف شعورها ، ومايعارض مبادئها الثابتة وعقائدها المتأصلة التى هى أقوى من الاستعداد لقبول الزعامة ، ولو على الأقل فى مبدأ ظهوره إلى أن يأخذهم بالحسنى ، ويتدرج معهم حتى يقتربوا من المبادىء التى يرسمها لهم . فالزعيم الملحد أو الفاسق يفلح فى أمة لاتعتز بدينها أو خلقها ، ولكنه حتما يفشل ولا تقوم له قائمة فى بلد يستمسك أهلها بعرى دينهم ، ولا تفلح الدعوة للجمهورية فى بلد يدين أهله بالملكية ويدينون للعرش والجالس عليه ، ولاتجد الدعوة للشيوعية والثورة مثلا أذناً واعية فى بلد يقبل نظام الطبقات ويدين أهله بالنظام والتقاليد . ولذلك قوبلت دعوة معاوية لولاية العهد لإبنه يزيد فى الشام بغير ما قوبلت به فى الحجاز ، فنجد الضحاك بن قيس يقف فى الشام متملقاً معاوية مروجاً ليزيد فيقول :

« وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين وحسن مذهبه وقصد سيرته ويمن نقيبته ، مع ما قسم الله من المحبة فى المسلمين والشبه بأمير المؤمنين فى عقله وسياسته وشيمته الرضية مادعانا الى الرضى به على أمورنا ».

ويقول عبد الرحمن بن عثمان الثقفى : « ويزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته وبلونا علانيته ورضينا ولايته ، أما فى الحجاز فقد تشدد قرابة رسول الله فى الأمر وتصلبوا ورفضوا مبايعة يزيد ولم يجد معاوية بداً من أن يسير اليهم بنفسه ، ويجمعهم أمام الناس والسيوف على رؤسهم ويعلن الولاية ليزيد ويتخذ من سكوتهم رضا ، وهكذا تتم البيعة ليزيد على كره من الخاصة الذين يعرفون سوء سيرة يزيد وتهاونه فى أمور دينه وانصرافه إلى كلابه وقيانه وشرابه وأمور دنياه ، وفيه قال ابنه معاوية الثانى .

« ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه ».

وما يقوله الإمام محمد عبده عن الخليفة وصاحب السلطان فى الإسلام يصدق على الزعيم .

« ثم هو مطاع مادام على الحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار إليه — لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق — فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه (٩٥) .

وقد ضرب الخلفاء الراشدون المثل الصالح فقال أبو بكر :

« وإن زغت فقوموني » ، وقال عمر « فإن رأيتم فىَّ إعوجاجاً فقوموه »

١٠ — وعليه أن يجسم النواحى الطيبة فى خلقه وسلوكه ، ويظهر بالصورة المحببة إلى نفوس الجماعة ويبرزها ، وأن يخفى ما عداها ويتستر على مافيه من عيوب ونقائص ، فإن شخصية الزعيم ترتبط بمبادئه ، وحياته الخاصة جزء متمم لحياته العامة ، والنقص فى الأولى قد يهدم الثانية ، ولا يمكن أن يسلم الناس للزعيم بأنه بشر مثلهم له عيوبه الخاصة كما أن له فضائله العامة ، ولا يمكن أن يفصل الناس هاتين الناحيتين . فليتستر على عيوبه إن أراد المحافظة على كيان زعامته ، ما دام لا يجد من قوة الإرادة ما يتخلص به من هذه العيوب (٨٦) .

١١ — وليس أقتل لشخصية الزعيم من الغرور وحب التملق وسماع الرياء ، ومديح الناس له بما ليس فيه ، وكراهية البصح والضيق بالنقد البرىء . فليأخذ مثله فى نبذ النفاق والمنافقين . من عمر بن الخطاب . فقد

قال مرة : قد أعيانى أهل الكوفة ، إن استعملت عليهم ليناً استضعفوه ، وإن استعملت عليهم شديداً شكوه . ولوددت أنى وجدت رجلا قوياً أميناً استعمله فيهم .

فقال واحد من القوم — أنا أدلك يا أمير المؤمنين على الرجل القوى الأمين ، هو عبد الله بن عمر . فقال عمر : قاتلك الله ، والله ماأردت الله بها ، لا أستعمله عليه ولا على غيرها ، وأنت قم وأخرج ، فمذ الآن لا أسميك إلا المنافق .

وليأخذ مثله فى سعة الصدر للنقد من معاوية . فقد نصح ابنه يزيد بقوله :

« يا بنى من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب فإذا ابتليت بشىء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الدواء » ، وقال زياد فى خطبته البتراء التى القاها على أهل الكوفة « وقد كانت بينى وبين قوم إحن ، فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان محسناً فليزدد فى احسانه ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته لو أنى علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لى صفحته ، فإن فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس » .

ويحذر ابن خلدون الزعيم من كذب بطانته فيقول :

« ومن الأسباب المقتضية للكذب تقرب الناس فى الأكثر لأصحاب النحلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك ، فيستفيض الأخبار بها على غير حقيقة (١٠٢) .

١٢ — وعليه أن يجعل المصلحة العامة رائده ، فلا يفتر عن تحقيقها ولو على حساب مصلحته هو والأقربين إليه ، وقد قال الرسول « إن لله

تعالى عباداً اختصهم بحوائج الناس يفزع إليهم الناس فى حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله » . ويقول ابن خلدون فى هذا المعنى: « السياسة فى فى الملك هى كفالة للخلق وخلافة لله فى العباد لتنفيذ أحكامه فيهم . وأحكام الله فى خلقه وعباده إنما هى بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع ، فإذا نظرنا الى أهل المعصية ومن حصل منهم الغلب على كثير من النواحى والأمم فوجدناهم يتنافسون فى الخير وخلاله — من العفو والكرم عند الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف ، وحمل الكل وكسب العدم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الأموال فى صون الأعراض ، وتعظيم الشريعة ، وإجلال العلماء الحاملين لها ، والانقياد إلى الحق مع الداعى إليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل فى أحوالهم ، والانقياد إلى الحق ، والتواضع للمسلمين ، واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين ، والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد علمنا أن هـــذه خلق السياسة قد حصلت لديهم ، واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم (١٠١)

وإن كان الزعيم حاكماً فأولى به أن يرعى مصالح الضعفاء والمساكين ، الذين لايمكن أن تصل أصواتهم إليه ، وأن ييسر لهم من السبل ما يمكنهم من الوصول إليه .

والرسول يقول : « أبغونى الضعفاء ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » .

ومن ثم ينزه الزعيم نفسه عن الأغراض الخاصة التى تعارض المصلحة العامة أو تعطلها ، وعن انتهاز الفرص والتماس الغنم المادى لنفسه ولأهله وأتباعه من وراء زعامته ، وعن التحيز فى المعاملة لفريق دون فريق ، وقد

قال الرسول الكريم رداً على أسامة عند ما استشفع فى إقامة الحد على امرأة قرشية سرقت : « إنما أهلك الذين من قبلكم إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وعند ما هاجر من مكة إلى المدينة خشى أن يقبل ضيافة أحد ، فيميزه عن غيره فيثير الحسد والغيرة فى نفوس الآخرين وتحدث الفتنة ، فترك لناقته خطامها تسير ، ونزل حيث بركت ، ولما وجه عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص لحرب العراق قال : « لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء » .

وقد قامت بسبب التحيز فى معاملة الأقرباء والخاصة فى صدر الإسلام أكبر فتنة فى تاريخه ، قسمت المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وجرت على أثرها من المحن والأرزاء ماقصر عهد الخلفاء الراشدين ، ونقل الدولة من شورية إسلامية إلى استبدادية كسروية ، وهى فتنة عثمان بن عفان ، فقد فوض النفر الذى أوصى عمر بن الخطاب باختياره خليفة عند ما حانت منيته ، عبد الرحمن بن عوف ، يختار لهم من أنفسهم واحداً منهم ، وبعد أن انتهى إلى رأى ، أخذ بيد عثمان وقال له : « عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبيك ، وشرط عمر ألا تجعل واحداً من بنى أمية على رقاب الناس ، وقال مثله لعلى بن أبى طالب خاصاً ببنى هاشم ، فرفض على وقبل عثمان وتمت البيعة له ، ولكنه سرعان ماعزل الولاة وغير أولى قرابته ، وأطلق لهم الحبل على الغارب فى إرهاق الناس ، ولم يسمع قول الناصحين المنذرين ، فاندلعت نيران الثورة التى انتهت بقتله

فى أبشع صورة ، وبدأت بذلك صفحة سوداء سيئة فى تاريخ الإسلام .

وكل حركة تخلق زعامة تقوم بجهود أناس ضحوا وعذبوا ، فطبيعى أن يكافأوا وأن يعوضوا عما فقدوه ، وأن تسند إليهم المناصب التى تمكن الزعيم من أداء مهمته إن كان حاكماً أو سياسياً ، كما أن كل حركة ناجحة تضم عدداً ليس بالقليل من المرتزقة النفعيين ، الذين ينتحلون لأنفسهم فى الجهاد نصيباً أكبر مما قاموا به ، بل إنهم ليتظاهرون بالتضحية ويبكون ويستصرخون ويطلبون ويلحفون .

فعلى الزعيم الماهر أن يعرف لكل فرد قدره وقيمته ، وأن لا يرضى أتباعه بالباطل على حساب الآخرين ، وأن يضع حداً لمطامعهم ويخفف من غلوائهم ، وأن لا يملأ مناصب الدولة بهم . ولذلك تحرص الدول الديمقراطية ذات النظم البرلمانية الدستورية على أن يبقى جميع موظفيها فى مراكزهم آمنين على مستقبلهم ، مطمئنين فى حاضرهم — اللهم إلا نفراً من أصحاب الوظائف السياسية يجيئون مع الحزب البرلمانى الحاكم ، ويخرجون بخروجه من الحكم .

وقد زالت دولة بنى أمية لأنهم كما يقول واحد من أشياخهم : شغلوا بلذاتهم عن تفقد ما كان تفقده يلزمهم ، فظلموا رعيتهم فيئسوا من إنصافهم وتمنوا الراحة منهم ، ووثقوا بوزرائهم فآثروا منافعهم ، وأمضوا أموراً دونهم أخفوا علمها عنهم ، واستدعاهم الأعادى فتضافروا معهم على حربهم ، وطلبهم أعداؤهم فعجزوا عنهم لقلة أنصارهم .

ويقول الإمام محمد عبده عن العباسيين :

« وأما الحروب الداخلية التى حدثت بعد استقرار الخلافة فى بنى العباس

وأضعفت الأمة وفرقت الكلمة ، فهى حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم ، وحبهم الإستئثار بالسلطان دون سواهم (٩٦) .

ويقول ابن خلدون « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم وامتازوا عمن سواهم ، حتى آسفوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة ، وأغضبوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية » (٩٧) .

ويلخص بعض العلماء صفات الزعيم السياسى الناجح فيما يلى :—

قوة الإرادة — معلومات عامة وثقافة واسعة . قوة العقيدة ، الإكتفاء بالنفس ، وطيبة القلب ، وعدم المصلحة الخاصة . الشهرة فى ناحية ما . إحساس فوق العادة بالنزعات الإجتماعية والصناعية ، ومبلغ قوتها من الناحية السياسية ، إدراك حاد وسريع للإتجاهات المحتملة لسلوك الجماعة فى ظرف ما ، وسرعة استغلالها ، سهولة ضم الناس إلى صفوفه وإيجاد الحلول الموفقة ، سهولة التعامل مع الناس على اختلاف أمزجتهم وطبائعهم . سهولة التعبير عن عواطف الناس والأمور التى تهمهم بالقول والكتابة ، الشجاعة (١٠٣) .

ويعطينا ابن طباطبا صورة للزعيم السياسى ممثلة فى وصفه لأكبر ساسة الإسلام معاوية : « كان عاقلا فى دنياه ، لبيباً عالماً حليما ، ملكا قوياً ، جيد السياسة حسن التدبير بأمور الدنيا ، عاقلا حكيما فصيحاً بليغاً ، يحلم فى موضع الحلم ، ويشتد فى موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً ، باذلا للمال ، محباً للرياسة مشغوفاً بها ، فلا يزال أشراف قريش

يفدون عليه بدمشق ، فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ، ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجبهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلات الجمة .

واستمع إلى زياد ذاته يقول فى خطبته البتراء :

« أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة ، ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنه مهما أقصر فإنى لا أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانه ، ولا مجمراً لكم بعثاً ، فادعوا بالصلاح لساستكم ولأئمتكم فإنهم المؤدبون ، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك أسفكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو أستجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . نسأل الله أن يعين كلا على كل » .

الزعيم الدينى — وهناك نوع من الزعامات يشوقها جميعاً بما فيها السياسية ، وهى الزعامة الدينية ، وبخاصة فى الإسلام الذى هو دين سياسة واجتماع ، ونظام ومعاملات ، بحيث يصح أن يقول إنها تجمع أطيب وأقوى ما فى الزعامات الأخرى من صفات .

فأول ما يجب أن يتوافر فيه ، قدرته على الكلام بأسلوب فياض ، وبيان أخاذ . . تارة بالعاطفة التى تلتهب نفوس الناس وتنمى استعداداتهم نحو الخير والدين ، وتارة بالمنطق والمعقول ، حتى تصل العقائد إلى عقول

الناس وقت أن تصل إلى قلوبهم ، والعالم الذى لايحسن الكلام لايستطيع أن ينقل بعض ما يعيه صدره من العلم إلى صدور الناس ، ثم هو يخاطب الناس على قدر عقولهم ويتخير من الأسلوب ما يناسب كل ظرف وجماعة من الناس .

ويشارك الناس عواطفهم ووجدانهم فيواسيهم عند كربتهم ، ويعطف عليهم فى محنتهم ، ويخفف من وقع البلوى عليهم ، ولا يترفع عن مخالطتهم أيا كان مستواهم وظروفهم ، على أن يظل محتفظاً بكرامته ووقاره بينهم — يغضب ولكن من غير حفيظة أو مرارة أو خروج عن الحد ، ويصفح عن المسىء بمجرد أن يستغفر ، وينظم للناس أحوال جماعتهم ومعاملاتهم وآدابهم ، ويفقههم فى أمور دينهم ، ويبشرهم بشريعتهم ، ويعظهم ويقرعهم ولكن من غير تهكم أو استخفاف ، ويجادل ويعارض من غير إسفاف أو ازدراء ويكون كلامه وأسلوبه للناس أدباً يفجر لهم ينبوع البيان من القرآن والحديث وكلام الأئمة المجتهدين والسلف الصالح ، وذوقاً يلطف من طباعهم ويرقق من حواشيهم ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، فخير العقائد ما جاء نتيجة اقتناع وتسليم ، لا عن إملاء وتلقين ، وينظر إلى الناس نظرة الأب الرحيم إلى أولاده الجهال ، يثيبهم إن أحسنوا ، ويعاقبهم إن أساءوا عقاباً ليناً هادئاً ، من غير إيذاء ، ولكن لا يجامل فى السيئة ، ولا يحمل الناس على إرضاء الناس فى معصية ، ويضرب البدع والخرافات بيد من حديد ، ويكون حرباً عواناً على أعداء الدين ، ويكون مصلحاً مجدداً ، فالدين لم ينزل لجنس واحد من الناس وفى عصر خاص ، وإنما هو صالح لكل زمان ومكان ، والعلم الحديث هو وليد القديم ، وكلاهما لا يستغنى عنه الدين ، والدين إن لم يساير العصر الذى نعيش فيه يبق فى واد والعالم

كله فى واد ، وعليه أن يكون شجاعاً فى رأيه ، يبديه بصراحة إن كان يرى الحق معه ومصلحة الدين فيه ، وإن خالف جماعة الجامدين المحافظين ، وأخيراً يحمل سلطان الدين فوق كل سلطان ، وحرمته فوق كل حرمة ، وقدرته تفوق كل اعتبار ، وطاعة الإنسان للخالق الديان واجبة قبل طاعته لأخيه الإنسان .

والإمام المراغى يقول : « أما أولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله ، ويستثمرونه فى الحوادث ، ويفهمون سنة رسوله القولية والفعلية ، فهم قادة الأمة فى الدين ، الذين يدركون أسراره ، ويفهمون أغراضه ، ويحيطون بأحوال زمانهم وأمتهم إحاطة تمكنهم من تطبيق الكتاب والسنة تطبيقاً صحيحاً ، ومن الإجتهاد لاستنباط الأحكام المحققة لمصلحة الأمة ، فى دائرة الكتاب والسنة .

وعلى هذا جرى سلف الأمة ، واستثمر العلماء نصوص الكتاب والسنة ووضعوا قوانين الدولة الإسلامية كاملة فى زمانهم ، ولم تكن لهم شهوة فى الخلاف ، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله (١٠٤) .

ولئن قدر لهذه الإنسانية المعذبة أن تخلص من ويلاتها وآلامها ، وأنظمتها الفاسدة ، وأن تظفر بعض الشىء بالطمأنينة والهدوء ، الذى يمكنها من الجمع بين مصالح دينها ودنياها ، والعمل لأولاها وأخراها ، فإنما سيكون ذلك بفضل زعماء الدين .

فإن الأغراض العملية التى يسعى اليها أهل الأديان كما يقول المراغى هى على الاجمال :

جعل التدين أداة فعالة فى تهذيب الجماعة وتمكين العوامل المعنوية التى

تشترك فيها الأديان من التأثير فى الحياة الإنسانية الواقعية وتصيير الفضائل العملية التى تدعو إليها الأديان كلها نظما عملية ، بذلك يقل فتك الشرور بالإنسانية فى الأمم ، وتقارب أنظارها وتدنو الإخاء الإنسانى بتقارب غاياتها وسلامة نفوسها ، ونظراً لأن الإنسانية قد نالها عسف كثير ، فمن الحق أن تظفر بالطمأنينة الكاملة من هذا الخطر ليتم للتدين ورجال الدين أن يعملوا على إسعادها ، والدعوة الى تنمية الشعور الدينى المشترك يجب أن تسبقها الزمالة بين رؤساء الأديان أنفسهم (١٠٦) .

خاتمة

نسأل الله تعالى أن يبصرنا بأمور الدين والعلم، وأن يمكننا من تعديل طبائعنا والسمو بغرائزنا، وأن يهيء لنا سبيل تكوين العواطف الصالحة فنحب الخير وأهله، ونكره الشر والداعين إليه، ونجعل حياتنا تدور حول محور الكرامة والواجب، وأن يعيننا على علاج نقط الضعف فينا واستغلال نواحي القوة، لتكثر فينا الشخصيات القوية، العاملة المتفائلة، وعندئذ نطمع فى أن يكون منا زعماء فى السياسة والأدب والعلم والدين، يأخذون بيدنا وينظمون أمورنا، فنبنى وإياهم مجد الأمة على أساس متين ونعيد إلى النفوس الضالة الشقية روح الطمأنينة ونعمة الدين.

مراجع وتعليقات

١ — فى علم النفس جزء أول فصول ١ . ٢ ، ٣ للمؤلف وآخرين .

٢ — علم النفس النظرى والتعليمى للمؤلف - ص ٢٠

٣ — Mc Dougall - Intr. to: social Psycholoqy

٤ — مرجع ١ فصل ٤

٥ — الأسفار الأربعة

٦ — النجاة ص ٢٦٦

٧ — التدبير . فصل بيان الأفعال الإنسانية

٨ — الدروس الدينية ١٩٣٩ ص ١٦

٩ — ص ١٧   ١٠ — ص ١٧   ١١ — ص ٧

١٢ — تفسير الحجرات ص ٣٦   ١٣ — ص ٧

١٤ — دروس ١٩٣٨ ص ١٣

١٥ — مرجع ٣ ص ٧٤

١٦ — Gal ton - Inquiries into Human Faculties P 72

١٧ — 5. Hall - Adolescence

١٨ — مرجع ٣ فصل ٢ وإضافى ٣

١٩ — Charater & Conduct of Life

٢٠ — Starch - Educational Psy

٢١ — مرجع ٣ ص ٢٥

٢٢ — الحجرات ص ٢٧

٢٣ — دروس ١٩٣٨ ص ٤٧

٢٤ — حجرات ص ٥

٢٥ — ص ٢٦

٢٦ — Dumville - Child Mind

٢٧ — مرجع ٣ ص ٤١٢

٢٨ — Manal. Of Psy. C3

٢٩ — Loveday & Green - Intr. to. Psy

٣٠ — Oakden & Sturt - Educ. Psy.

٣١ — Hall - Youth (Theory of catharsis)

٣٢ — Thomson - Ins tinct,

Intelligence & Character. P: 158

٣٣ — مقالات العقل الباطن للمؤلف : مجلة نشر الفضائل الإسلامية

٣٤ — مرجع ٣ فصل ٥

٣٥ — دروس ٣٨ ص ٢٣

٣٦ — مرجع ٣ فصل ٥

٣٧ — Shand - foundation of Character.

٣٨ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام : تعريب أبى ريده ص ٧٥

٣٩ — التهذيب ص ١٠ و ٨٨

٤٠ — الفوز الأصغر

٤١ — الحجرات ص ١٨

٤٢ — دروس ٣٩ ص ٢٩

٤٣ — الحجرات ص ٢٦

٤٤ — ص ٢٠

٤٥ — دروس ٣٨ ص ٤٠

٤٦ — دروس ٣٩ ض ١٠

٤٧ — ص ١٦ ٤٨ ص ١٥

٤٩ — الحجرات ص ١٤

٥٠ — الشفا للقاضى عياض

٥١ — دروس ٣٨ ص ٥

٥٢ — التـــدبير

٥٣ — مرجع ٣٨ ص ٢٣٧

٥٤ — مقامات العارفين

٥٥ — دروس ٣٦ ص ٢٦

٥٦ — ص ١٠

٥٧ — التهـــذيب

٥٨ — عيون المسائل

٥٩ — الروضة الطبية لابن بختيشوع ص ٢٠

٦٠ — Warren - H. C - Human Psy-P:373

٦١ — Section 33

Hall - Asynthetic Genetic study of fear - A. J:psy 1914 — ٦٢

Bridges - Atheory of — ٦٣

Personlity - 5. Abn. soc. Psy. 1925 — ٦٤

Thouless. Intelligence. — ٦٥

Mc Dougall - Energies of Man: P 183 — ٦٦

P 383 — ٦٧

Downey J. E - The Will Temeprament & its Testing — ٦٨

O'Shea M. V - The child & His Nature P 16 — ٦٩

Bogardus. E. S - The occupational Attitudes - J: — ٧٠

٧١ — مرجع ٦٩

٧٢ — مرجع ٦٢

Thomas W. i - The unadgusted Girl P 4 — ٧٣

Conklin E. s - The definition of — ٧٤

Introversion, Extroversion, Aliicd Concepts - J ABN. Soc. Psy 1922

Nenmann Kohlstedt ٧٦ — معدل عن مقياس

٧٧ — التشاؤم والتفاؤل ، مقال للمؤلف : الهلال ١٩٣٤

Thomas W.1 - T province Of soc psy AM. J. soc 1904 — ٧٩

Emerson R. W: Representative Men — ٨٠

Leopold-Prestige, Apsy Stuy of sociallestimates. — ٨١

Mamford - origin Oflcader - ship, Am. J: Soc 1609 — ٨٢

Harold Smith - Outline of hinduism — ٨٣

Ludwig Stein - the Soc Of Authority pub. Am. soc society 1923 — ٨٤

Elyowin E. B - the Executive & His control of men — ٨٥

Trotter W - Instincts of the herd in peace & war. — ٨٦

٨٧ — المقدمة ص ٣١ فصل أول من الكتاب الأول

٨٨ — » » ٢١٣ - ٥٢ فصل ثالث من الكتاب الأول

Puffer J. A - The Boy In His gronp — ٨٩

٩٠ — الشرائع Laws.

٩١ — محاورات أفلاطون : تعريب زكى نجيب محمود

Cooley C. H. Human nature & The soical order. — ٩٢

٩٤ — الإحياء جزء ثالث ص ٢٤٢ بيان معنى الجاه وحقيقته

٩٥ — الإسلام والنصرانية ص ٩٣

٩٦ — ص ١٣

٩٧ — المقدمة ص ١١ المقدمة

Cosnell A. F. Boss Platt, New York machine Intr. — ٩٨

Abdul Magid. The psy. Of Leadership — ٩٩

Schwartg B. L. General Typesof superior Men. — ١٠٠

١٠١ — ص ١٠١ - ٢٠ فصل ثان الكتاب الأول

١٠٢ – ص ٢٦ الكتاب الأول فى طبيعة العمران

١٠٣ – Overstreet H. A. Influeucing Human Behaviour

١٠٥ – الحجرات ص ٢

١٠٦ – رسالة مؤتمر الأديان ١٩٣٦

١٠٧ – Bridges. Theories of temperament Psy. REV. 1923

١٠٨ – دروس ٣٩ ص ٣٠

١٠٩ – American army Tests. Form a. Test 8

١١٠ – مقياس الجيش والبوليس المصرى للمؤلف طبع مدرسة البوليس

١١١ – مقياس الجيش والبوليس العراقى : طبع الكلية الحربية ببغداد

١١٢ – سميت بيزنطية لأن رجال الدين فى بيزنطة كانوا منصرفين إلى مناقشة بعض المسائل غير المجدية – كالبيضة والدجاجة – وعدوهم على الأبواب يحاصر أسوار المدينة .

١١٣ – دروس ٣٨ – ص ٨

فهرس الكتاب

صحيفة

٤ المقـــدمة

٥ (البـاب الأول) مقدمة فى علم النفس ، موضوعه ، تعريفه .

٦ الإنسان والحيوان

٦ الشعور ومظاهره الثلاثة : الإدراك ، والوجدان ، والنزوع .

٨ الاستعدادات الإنسانية

١٠ (البـاب الثانى) الغرائز : سلوك الإنسان والحيوان .

١٣ أمثـــلة الغرائز

١٦ تعريف الغريزة .

١٧ مـــيزات الغرائز

١٨ آثار الغرائز فى سلوك الفرد والجماعة .

٢٠ تعـــديل الغرائز

٢٢ استخدامها فى التربية والتعليم .

٢٧ (البـاب الثالث) الانفعالات : وصفها ، صلتها بالغرائز .

٣٠ الانفعالات الأولية والثـانوية .

٣١ الانفعالات المعقدة أو المركبة .

٣٢ (الباب الرابع) العاطفة الأولية .

٣٤ تطور العاطفة الأولية إلى عاطفة كاملة

٣٥ العاطفة الـكاملة أو النموذجية .

صحيفة

٣٦ مركز العاطفة
٣٦ عاطفة الحب
٣٩ عاطفة الكراهية
٤١ عاطفة اعتبار الذات
٤٣ عاطفة الدين
٤٧ (الباب الخامس) تطور السلوك الإنسانى
٤٧ المستويات الأربعة للسلوك :
٤٧ مستوى الغرائز
٤٨ المستوى المادى
٤٨ المستوى المعنوى
٤٩ مستوى الواجب والكرامة
٥ (الباب السادس) المزاج : تعريفه .
٥١ الأمزجة عند القدماء .
٥٣ أخطاء القدماء .
٥٥ آراء المحدثين : التقسيم على أساس النشاط الحيوى .
٥٦ أساس النشاط والناحية الوجدانية .
٥٧ « الغرائز : الأمزجة الأصلية : أمزجة التعويض .
٥٩ أثر المزاج
٦٠ (الباب السابع) الشخصية .

٦٠ تعريف الشخصية
٦٥ عوامل الشخصية ، الناحية العقلية ، العلم والثقافة .
٦٦ مقياس الثقافة العامة .
٦٩ الوجدان
٧١ عامل المـــزاج
٧٢ عوامل الخلق والبدن
٧٣ المهنـــة
٧٥ عامل البيئـــة .
٧٥ أنواع الشخصيات : الرغبات الطبيعية الأربع .
٧٦ الشخصية المنبسطة .
٧٦ الشخصية المنقبضـة .
٧٩ المقاييس العمليـة .
٨٣ (البـاب الثامن) الزعامة .
٨٦ الزعامة ظاهرة طبيعية إنسانية .
٨٨ الظروف المهيئة لظهور الزعماء .
٩٥ قبول الزعامة
٩٩ صفات الزعيم .
١٠٠ الزعيم الدينى .
١٠١ الزعيم السياسى .
١١٧ مراجع وتعليقات .

للمؤلف

١) علم النفس النظرى والتعليمى : محاضرات للمؤلف . جمعها الأستاذ رضا حسن

٢) فى علم النفس ــ جزء أول ــ مع الأستاذين حامد عبد القادر وعطية الابراشى .

٣) الطرق العملية لدراسة الحياة العقلية : مع السيدة نظلة الحكيم .

٤) ذاكرة الألوان والأشكال بالانكليزية (نفدت) .

٥) نظرية جديدة فى علم النفس ، بالإنجليزية .

٦) مبادىء التربية ـ مع آخرين . طبعة وزارة المعارف العمومية .

٧) الطرق الحديثة لتدريس الحساب ، جزء أول فى الجمع والطرح .

٨) الحساب الحديث (للتلميذ) مقرر السنة الأولى الابتدائية فى كراستين .

٩) علم النفس الاجتماعى من الإسلام والعلم الحديث .

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

تقدم أحدث المؤلفات لعام ١٩٤٥

		الثمن مليم
مكتبة الجيل :		
١ — نحن والعلم . . .	للدكتور على مصطفى مشرفه بك	٥٠
٢ — مشاكل الشباب النفسية .	للدكتور أحمد عزت راجح .	٦٠
٣ — وحى العلم . .	للدكتور مصطفى عبد العزيز .	٥٠
لجنة الجيل الجديد :		
١ — جان راسين . .	الأستاذ محمد حموده . . .	٥٠
٢ — النبى فى مصر . .	للأستاذين على إبراهيم الأقطش . ومصطفى كامل فوده .	١٥٠
٣ — فى ذنيا العدم وقصص أخرى	للاستاذ حبيب توفيق . . .	١٢٠
٤ — حياتى لأنطون تشيكوف .	« محمود الشنيطى . . .	١٥٠
كتب متنوعة :		
١ — حاضر ياأفندم . .	للدكتور عبد الدايم أبو العطا	٥٠
٢ — التسلية بالألعاب السحرية	للاستاذ شوقى محمد يوسف . .	١٥٠
٣ — سيف وقلب . .	« فرج جبران . . .	٢٥٠
٤ — سر المرأة . .	« محمود شلبى . . .	٢٥٠
٥ — الثورات الثلاث . .	« مصطفى كال فايد . .	٢٥٠

وتطلب جميعها من ملتزمها

أحمد محمد ابراهيم صاحب مكتبة نهضة مصر بالفجالة تليفون ٥٠٨٢٧

ومن المكاتب الشهيرة بمصر والأقطار العربية

301.1:Sa13iA:c.2
سعيد ،محمد مظهر
علم النفس الاجتماعي من الاسلام والع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01009761

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

301.1
Sa13iA
c.2
General Library

301.1
Sa13iA
c.2